

الكفاح الدامي

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي:

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين، وما فعلوا بهم عند الهجرة، مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم، ويمتنعوا عن عدوانهم، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقراً بالمدينة، فكتبوا إلى عبدالله بن أبي بن سلول، وكان إذا ذلك مشركاً بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكاً على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم^(١).

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبدالله بن أبي ليمثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي ﷺ، لما يراه أنه استلبه ملكه - يقول عبدالرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبدالله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا^(٢).

امتنع عبدالله بن أبي بن سلول عن إرادة القتال عند ذلك؛ لما رأى خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهبها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود؛ ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حيناً بعد حين^(٣).

(١) أبو داود باب خبر النضير.

(٢) انظر في هذا الصدد صحيح البخاري ٢/٦٥٥، ٦٥٦، ٩١٦، ٩٢٤.

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من لقف النهار، فلقبها أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويت الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة (١).

قريش تهدد المهاجرين:

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم (٢).

ولم يكن هذا كله وعيداً مجرداً، فقد تأكد عند رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً، أو في حرس من الصحابة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسي الليلة، قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام (٣).

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي بل كان ذلك أمراً مستمراً، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرص ليلاً، حتى نزل: ﴿والله يعصمك من الناس﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل (٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، ٥٦٣/٢.

(٢) رحمة للعالمين ١١٦/١.

(٣) مسلم باب فضل سعد بن أبي وقاص ٢٨٠/٢ واللفظ له، وصحيح البخاري - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤٠٤/١.

(٤) جامع الترمذي أبواب التفسير ١٣٠/٢.

ولم يكن الخطر مقتصرأ على رسول الله ﷺ ، بل على المسلمين كافة، فقد روى أبي ابن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوئهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه .

الإذن بالقتال:

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، والتي كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يفرضه عليهم قال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ [٢٣ : ٣٩] .

وأنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل، وإقامة شعائر الله، قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [٢٣ : ٤١] .

والصحيح الذي لا مندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة، لا بمكة، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد النزول .

نزل الإذن بالقتال، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف - التي مبعثها الوحيد هو قوة قريش وتمردها - أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام، واختار رسول الله ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الخلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد أسلفنا معاهدته - مع اليهود، وكذلك كان عقد معاهدة الخلف أو عدم الاعتداء مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة، وقد عقد معاهدات أثناء دورياته العسكرية وسيأتي ذكرها .

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر: (١)

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ في المسلمين النشاط العسكري فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال، وقاموا بمحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب

(١) سمي المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية .

منها هو الذي أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وعقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق، وإشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم، وإنذار قريش عقبى طيئها، حتى تفيق عن غيها الذي لا تزال تتوغل في أعماقه، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معاشها فتجئح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة، حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة.

وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز:

١ - سرية سيف البحر، في رمضان سنة ١ هـ. الموافق مارس سنة ٦٢٣ م. أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترض عبراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص^(١). فالتقوا واصطفوا للقتال، فمضى مجدي ابن عمرو الجهني - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتلوا.

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيض، وكان حامله أبا مرثد كناز بن حصين الغنوي.

٢ - سرية رابع، في شوال سنة ١ من الهجرة - أبريل سنة ٦٢٣ م، بعث رسول الله ﷺ عبدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابع، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين، خرجا مع الكفار؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين. وكان لواء عبدة أبيض، وحامله مسطح بن أثانة بن المطلب بن عبد مناف.

٣ - سرية الحرّار^(٢)، في ذي القعدة سنة ١ هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣ م، بعث رسول

(١) العيص - بالكسر - مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

(٢) الحرّار - بالفتح فالتشديد - موضع بالقرب من الجحفة.

الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكباً، يعترضون عميراً لقريش، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض، وحمله المقداد بن عمرو.

٤ - غزوة الأبواء أو ودان^(١) - في صفر سنة ٢ هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م، خرج رسول الله ﷺ بنفسه، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عباد، في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة، يعترض عميراً لقريش حتى بلد ودان، فلم يلق كيداً. وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، وهاك نص المعاهدة:

هذا كتاب من محمد رسول الله لبيني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بجر صوفة، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه^(٢).

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيض، وحامله حمزة بن عبد المطلب.

٥ - غزوة بواط، في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ - سبتمبر سنة ٦٢٣ م، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عميراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش، وألفان وخسمائة بعير، فبلغ بواطاً من ناحية رضوى^(٣) ولم يلق كيداً. واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

٦ - غزوة سفوان، في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ - سبتمبر سنة ٦٢٣ م أغار كرز بن جابر الفهدي في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادياً يقال له

(١) ودان - بالفتح فالتشديد - موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً، والأبواء موضع بالقرب من ودان.

(٢) انظر المواهب اللدنية ٧٥/١ وشرحه للزرقاني.

(٣) بواط (بالضم) ورضوى، جبلان فرعان أصلهما من جبال جهينة: مما يلي طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد.

سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، وكان اللواء أبيض، وحامله علي بن أبي طالب.

٧ - غزوة ذي العشيرة - في جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣ م، خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال: في مائتين، من المهاجرين، ولم يكره أحداً على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعرضون عيراً لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العشيرة^(١)، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة. وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة.

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

٨ - سرية نخلة - في رجب سنة ٢ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م، بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان على بعير.

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه. فسار عبدالله، ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم» فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه.

(١) العشيرة - مصغراً، ويقال: العشراء بالمد، وقيل: العشيرة بالمهملة - موضع بناحية ينبع.

وسار عبدالله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت عبر لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعرير والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام. وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، ووقف التصرف في العير والأسيرين.

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر في ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون...

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل﴾ [٢: ٢١٧].

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة. وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وأدى دية المقتول إلى أوليائه^(١).

★ ★ ★

تلکم السرايا والغزوات قبل بدر، لم یجر فی واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال،

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٨٣/٢، ٨٤، ٨٥، وابن هشام ٥٦١/١ إلى ٦٠٥، ورحمة للعالمين ١١٥/١، ١١٦، ٢/٢١٥، ٢١٦، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠ وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا، وفي تعيين عدد الخارجين فيها - واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة المنصورفوري.

إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أوتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبدالله بن جحش تحقق خوف المشركين، وتجدد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقدًا وغيظًا، وصمم صناديدهم وكبرأؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل، من إبادة المسلمين في عقر دارهم، وهذا هو الطيش الغدي جاء بهم إلى بدر.

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبدالله بن جحش، في شهر شعبان سنة ٣ هـ، وأنزل في ذلك آيات بينات ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [٢: ١٩٠: ١٩١: ١٩٢: ١٩٣].

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يعلم فيها طريقة القتال، ويحثهم عليه، ويبين لهم بعض أحكامه ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك، ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليلبوا بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [٤٧: ٤، ٥، ٦، ٧] ^(١).

ثم ذم الله الذين طففت أفئدتهم ترجف وتحقق حين سمعوا الأمر بالقتال: ﴿فإذا

(١) حقق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي تحقيقاً مدلاً أن سورة محمد نزلت قبل بدر، راجع تفهيم القرآن

أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴿ الآية [٤٧ : ٢٠] .

وإيجاب القتال والحض عليه، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسير أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب العليم المتعال، فالظروف كانت تقتضي عراقاً دامياً بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبدالله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحياتهم، آلتهم، وتركتهم يتقبلون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائياً، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى، والإثخان في الأرض، حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً. ولكن ترك كل ذلك مستوراً؛ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله.

وفي هذه الأيام - في شعبان سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

وفي تحويل القبلة إشارة لطيف إلى بداية دور جديد، لا ينتهي إلا بعد إحتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخليصها يوماً ما.

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة.

غزوة بدر الكبرى أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عمراً لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد إلى الشمال، ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء، ومكثتا حتى مر بهما أبو سفيان بالعر، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر.

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة، ألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً.

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها.

ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة - بدل العير - هذا الاصطدام العنيف في بدر، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في سرايا الماضية، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة.

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٣، ٣١٤، ٣١٧ رجلاً)، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين، و ٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج. ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالاً بليغاً، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرسان، فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم

سبعون بعيراً ليعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعليٌّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبدالمنذر، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيض .

وقسم جيشه إلى كتبتين :

١ - كتيبة المهاجرين، وأعطى علمها علي بن ابي طالب .

٢ - كتيبة الأنصار، وأعطى علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى اليسرة المقداد بن عمرو - وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش كما أسلفنا - وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر :

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها، ترك طريق مكة بيسار، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرأ)، فسلك في ناحية منها، حتى جذع وادياً يقال له رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، وهنالك بعث بسيس بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير .

النذير في مكة :

وأما خبر العير فإن أبا سفيان - وهو المسؤول عنها - كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة، مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم، ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه، وخرج ضمضم سريعاً حتى أتى مكة، فصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، وقد جدع أنفه،

وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفظ الناس سراعاً، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا، والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبوا في الخروج، فلم يتخلف من أشرفهم أحد سوى أبي لهب، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج منهم أحد.

قوام الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشرف قريش، فكانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل.

مشكلة قبائل بني بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك يشيهم، ولكن حينئذ تبدي لهم إبليس في صورة سراقبة بين مالك بن جعشم المدلجي - سيد بني كنانة - فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

جيش مكة يتحرك:

وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله: ﴿بطرا ورتاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ - «بجدهم وحديدتهم، يحادون الله ويهادون رسوله»، ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه، لاجترأ هؤلاء على قوافلهم.

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلخوا في طريقهم وادي عسفان، ثم

قديد، ثم الجحفة، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتحزروا عميركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجها الله فارجعوا.

العير تفلت:

وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذراً متيقظاً، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدم عميره، حتى لقي مجدي بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته، فإذا فيه النوى، فقال: هذا والله علائف يثرب، فرجع إلى عميره سريعاً، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً، تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار. وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة.

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ، فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً.

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة - وكان حليفاً لهم ورئيساً عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدرأ زهري واحد، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً.

وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصاة حتى نرجع.

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة - وهو يقصد بدرأ - فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر.

حراجة موقف الجيش الإسلامي:

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران - خبر العير والنفير، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام، وأنه لا بد من إقدام بنبي على الشجاعة والبسالة، والجرأة، والجسارة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعياً لمكانة قريش العسكرية، وامتداداً لسلطانها السياسي، وإضعافاً لكلمة المسلمين وتوهيناً لها، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة.

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين في عقر دارهم. كلا، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم.

الجلس الاستشاري:

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجيء، عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه، وقادته. وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدامي، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ وأما قادة الجيش؛ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: « يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ». فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة

سيدور على كواهلهم، مع ان نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: « أشيروا علي أيها الناس » وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال: والله. لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

قال: « فقد آمانا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدونا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدواً غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله ».

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاطعن حيث شئت، وصل جبل من شئت، واقطع جبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين: والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

الجيش الإسلامي يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية، وترك الحنان بيمين - وهو كثيب عظيم كالجبل - ثم نزل قريباً من بدر.

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبينما هما يتجولان حولاً معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب، فسأله رسول الله

عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادة في التكتم - ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتم؟ فقال له رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أو ذاك بذلك؟ قال: نعم.

قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المدينة - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة.

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتم؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من ماء، ثم انصرف عنه، وبقي الشيخ يتفوه، ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفي مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد، ليبحث عن أخبار العدو، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض وجاؤوا بهما إلى رسول الله ﷺ، وهو في الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبي سفيان - لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة - فضربوهما موجعاً، حتى اضطر الغلامان أن يقولوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم كالعاتب: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، صدقاً والله، إنها لقريش.

ثم خاطب الغلامين قائلاً: أخبراني عن قريش، قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: كم القوم؟ قالوا: كثير. قال: ما عدتهم؟ قالوا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشرف قريش؟ قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن

خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف في رجال سميّاهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

نزول المطر :

وأُنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وإبلاً شديداً منهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلاً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية :

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ، ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل ، أمناً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم - قريش - فننزله وتغور - أي نخرب - ما وراءه من القلب ، ثم نبي عليه حوضاً ، فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى أتى أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عداها من القلب .

مقر القيادة :

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمون مقراً لقيادته ، استعداداً للطوارئ ، وتقديراً للهزيمة قبل النصر ، حيث قال : « يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد

لك حياً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ينعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك» .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، وبنى المسلمون عريشاً على تل مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، يجرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعبئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه^(١)، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله^(٢). ثم بات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هنالك، وبات المسلمون ليلهم هادىء الأنفاس منير الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ [٨ : ١١] .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه في ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش؛ فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكتيب إلى وادي بدر، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ، فقال: دعوهم، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني من يوم بدر، فلما اطمانت قريش بعث عمير بن وهب الجمحي؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يريدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أهملوني حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعده، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا

(١) انظر جامع الترمذي أبواب الجهاد، باب ما جاء في الصف والتعبئة ٢٠١/١ .

(٢) رواه مسلم عن أنس، انظر مشكاة المصابيح ٥٤٣/٢ .

معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم.

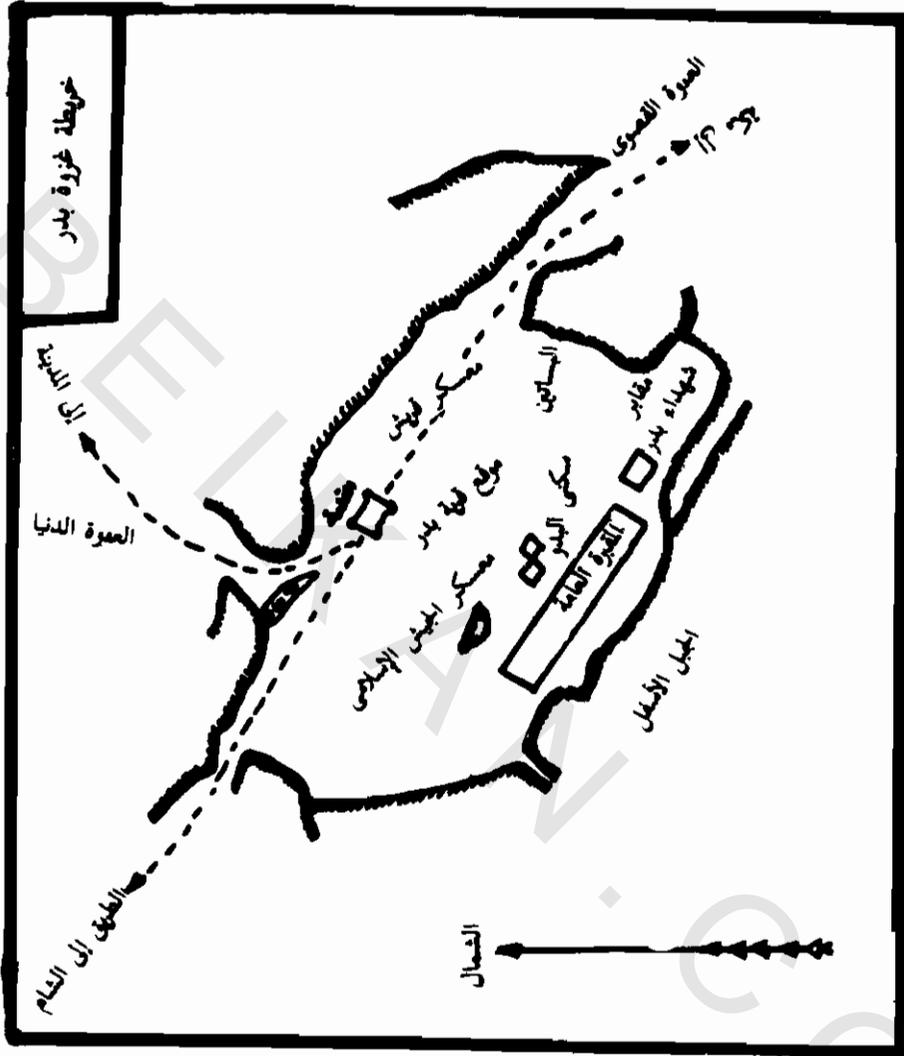
وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمم على المعركة - تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دوغماً قتال، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش، وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة: قد فعلت، أنت ضامن علي بذلك، إنما هو حليفي فعلي عقله دينه وما أصيب من ماله.

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام، فأت ابن الحنظلية - أبا جهل، والحنظلية أمه - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهوى درعاً له - قال يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعثه ما قال، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر - فتخوفكم عليه.

ولما بلغ قول أبي جهل: « انتفخ والله سحره »، قال عتبة: سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاوراة إلى عامر بن الحضرمي - أخي عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال: هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت تارك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك، فقام عامر، فكشف عن استه، وصرخ: واعمره، واعمره، فحمي القوم، وحقب أمرهم، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر،



وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

الجيشان يترآان:

ولما طلع المشركون، وترآاى الجمعان قال رسول الله ﷺ: « اللهم هذه قریش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرک الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة ». وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر - إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا.

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدها وقع أمر عجيب، فقد كان في يده قدح يعدل به، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني فأقذني، فكشف عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد، وقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال: إذا أكثبكم - يعني كثروكم - فارموهم، واستبقوا نبلكم^(١)، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم^(٢)، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، وفي ذلك أنزل الله ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، وإن تنتهوا فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، ولن تغني عنكم فئتكُم شيئاً ولو كثرت، وإن الله مع المؤمنين﴾ [٨]: [١٩].

(١) صحيح البخاري ٥٦٨/٢.

(٢) سنن أبي داود في سل السيوف عند اللقاء ١٣/٢.

ساعة الصفر وأول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - خرج قائلاً: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه. فلما خرج إليه حزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حزة، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

المبارزة:

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمها عفراء - وعبدالله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبدة بن الحارث، وقم يا حزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حزة شيبة، وبارز علي الوليد^(١)، فأما حزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأما عبدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فأثنى كل واحد منهما صاحبه، ثم كر علي وحزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبدة، وقد قطعت رجله؛ فلم يزل صمتاً حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة.

وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ الآية.

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضباً، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد.

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق، وفي رواية أحمد وأبي داود أن عبدة بارز الوليد، وعلي بارز شيبة، وحزة بارز عتبة. مشكاة المصابيح ٣٤٣/٢.

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتوالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحد أحد.

الرسول ﷺ يناشد ربه:

وأما رسول الله ﷺ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك. حتى إذا حمى الوطيس، واستدارت رحى الحرب بشدة، واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها، قال: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً. وبالغ في الابتهاج حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك.

وأوحى الله إلى ملائكته: ﴿ أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾، وأوحى إلى رسوله: ﴿ أنى بمدم بألف من الملائكة مردفين ﴾ - أي أنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضاً أرسالاً، لا يأتون دفعة واحدة.

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع (أي الغبار). وفي رواية إسحاق: قال رسول الله ﷺ: « أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع ».

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش، وهو يشب في الدرع، ويقول: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [٤٥: ٥٤]، ثم أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً وقال: شأهت الوجوه، ورمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفمه من تلك القبضة، وفي ذلك أنزل الله: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [٨: ١٧].

المهجوم المضاد:

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره بالهجمة المضادة فقال: شدوا، وحرصهم على القتال، قائلاً: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، وقال وهو يحضهم على القتال: قوموا إلى جنة عرضها

السموات والأرض، (وحيثُذ) قال العمير بن الحمام: بخ.. بخ، فقال رسول الله ﷺ: ما يملكك على قولك: بخ. بخ؟ قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل (١).

وكذلك سأله عوف بن الحارس - ابن عفراء - فقال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده! قال غمسه يده في العدو حاسراً، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت، وفتّر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم - وقد كان نشاطهم الحربي على شابه - قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، وزادهم نشاطاً وحدة أن أوامر رسول الله ﷺ يثب في الدرع، ويقول في جزم وصراحة: ﴿سيهزم الجمع ويولون دبر﴾، فقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة، ففي رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها، وقال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة (٢). وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري. وجاء رجل من الأنصار للعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: أسكت فقد أيدك الله بملك كريم.

(١) رواه مسلم ١٣٩/٢، مشكاة المصابيح ٣٣١/٢.

(٢) روى مثل ذلك مسلم ٩٣/٢ وغيره.

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس - وكان قد جاء في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي كما ذكرنا، ولم يكن فارقههم منذ ذلك الوقت - فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه، وتشبث به الحارس بن هشام - وهو يظنه سراقه - فوكز في صدر الحارس فألقاه، ثم خرج هارباً، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقه؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا، لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب، ثم فر حتى ألقى نفسه في البحر.

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة.

صمود أبي جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه لما رأى أول امارات الاضطراب في صفوف حاول أن يصمد في وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه، ويقول لهم في شراسة ومكابرة: لا يهزمنكم خزلان سراقه إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالخيال، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم. ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطسة، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم بقي حوله عصاة من المشركين، ضربت حوله سياجاً من السيوف وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصارين.

مصراع أبي جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن، فكأنني لم آمن بمكانها، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم، أرنى أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله

ﷺ، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء (١).

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الخرجة - والخرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنتني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه - أطارتها - بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها. قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما أدتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها (٢) ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبتته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: من ينظر ما صنع أبو جهل؟ فتفرق الناس في طلبه، فوجده عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه، وأخذ خيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه (٣)؟ أو هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غير أكار قتلني، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه - لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة.

(١) صحيح البخاري ٤٤٤/١، ٥٦٨/٢، مشكاة المصابيح ٣٥٢/٢، وإنما خص بالسلب واحداً منها لأن الثاني قتل شهيداً في نفس المعركة.

(٢) بقي معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) أي ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

وبعد أن دار بينها هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ فرددها ثلاثاً، ثم قال: الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه، فانطلقنا فأريته إياه، فقال: هذا فرعون هذه الأمة.

من روائع الإيمان في هذه المعركة:

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والأخوة بالأخوة، خالفت بينها المبادئ، ففصلت بينها السيوف، والتقى المقهور بقاهره، فشفي منه غيظه.

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكراً، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لأحمنه - أو لأجمنه - بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أضرِب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف، فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلا أضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً.

٢ - وكان النهي عن قتل أبي البختری؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني المطلب.

ولكن أبا البختری قتل على رغم هذا كله، وذلك أن المجذر بن زياد البلوي لقيه في المعركة، ومعه زميل له، يقاتلان سوياً، فقال المجذر: يا أبا البختری إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟ فقال المجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، فقال: والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، ثم اقتتلا، فاضطر المجذر إلى قتله.

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمّية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه علي بن أمّية، أخذاً بيده، ومع عبد الرحمن أذراع قد استلبها، وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك في؟ فأنا خير من هذه الأذراع التي معك، ما رأيت كالليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ - يريد أن من أسرفني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن - فطرح عبد الرحمن الأذراع، وأخذها يمشي بهما، قال عبد الرحمن: قال لي أمّية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه: من الرجل منكم المعلم بريشة النعامه في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان أمّية هو الذي يعذب بلالاً بمكة، فقال بلال: رأس الكفر أمّية بن خلف، لا نجوت إن نجأ قلت: أي بلال، أسيري قال: لا نجوت إن نجأ. قلت: أسمع يا ابن السوداء. قال: لا نجوت إن نجأ. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمّية بن خلف، لا نجوت إن نجأ، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمّية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئاً. قال فهبروها بأسيا ففهم حتى فرغوا منها، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أذراعي، وفجعني بأسيري.

وفي زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمّية: ابرك، فبرك، فألقى نفسه عليه، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف^(١).

٤ - وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة.

٥ - ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب^(٢)

٦ - ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله ﷺ في العريش، وسعد بن معاذ قائم على بابهِ يحرسه متوشحاً سيفه، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية ما يصنع الناس، فقال له: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ قال: أجل والله يا رسول الله.

(٢) الشكة: السلاح. واليعبوب: الفرس الكثير الجري.

(١) زاد المعاد ٢/٨٩.

كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال.

٧ - وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدي، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن أبيض الحديدية، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده..

٨ - وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدي بأخيه أبي عزيز بن عمير، الذي خاض المعركة ضد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال: مصعب للأنصاري: شد يدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بي؟ فقال مصعب: إنه - أي الأنصاري - أخي دونك.

٩ - ولما أمر بالقاء جيف المشركين في القليب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ فقال: لا والله، يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً.

قتلى الفريقين:

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى، فقال: بشس العشيبة كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدقتي الناس، وخذلتُموني ونصرتي الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس، ثم أمر بهم، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر.

وعن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبي ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، وفي رواية ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون^(١).

مكة تتلقى نبأ الهزيمة:

فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة، تبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً.

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سباهم. فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عني، قالوا: ما فعل صفوان بن أمية قال: ها هو ذا جالس في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وقال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ - : كنت غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يكرم إسلامه، وكان أبو هب قد تحلف عن بدر، فلما جاءه الخبر كبتته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح، أنحتنا في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي، وعندني أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو هب يجر رجليه بشر، حتى جلس على طنب الحجر^(٢)، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو هب: هلم إلي، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه. فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فممنحنهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم الله مع

(٢) طنب الحجر: طرفها.

(١) متفق عليه، مشكاة للصابيح ٢/٣٤٥.

ذلك ما لمت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق (١) شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجره بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو هب يده، فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فتاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك علي يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجره، فأخذته، فضربته به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته (وهي قرحة تتشامم بها العرب، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه).

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثراً سيئاً جداً، حتى منعوا النياحة على القتلى، لئلا يشمت بهم المسلمون.

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يجب أن يبكي عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلاً صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - ابنه - فإن جوفي قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، فلم يتالك الأسود نفسه وقال:

أبكي أن يضل لها بعير	ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن	على بدر تقاصرت الجودود
على بدر سراة بني هصيص	ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت على عقيل	وبكي حارثاً أسد الأسود
وبكيهم، ولا تسمي جميعاً	وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة، ليعجل لهم

(١) لا تبقي شيئاً.

الشري، أرسل عبدالله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى أنهم أتاعوا خبر مقتل النبي ﷺ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكباً القصواء - ناقه رسول الله ﷺ - قال: لقد قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلاً^(١).

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منها الخبر، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فعمت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً، ونقدم رؤوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر؛ ليهنئوا رسول الله ﷺ - بهذا الفتح المبين.

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سونا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان.

الجيش النبوي يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم، ففعلوا، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة.

عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يجرزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فشتغلنا به، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ [٨: ١] فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين^(٢).

(٢) أخرجه أحمد ٥/٣٢٣، ٣٢٤، والحاكم ٢/٣٢٦.

(١) فلاً: منهزماً

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بيذر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل عليه عبدالله بن كعب، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء، بعد أن أخذ منها الخمس.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمي قريش، ومن أشد الناس كيداً للإسلام، وإيذاء لرسول الله ﷺ - فضرب عنقه علي بن أبي طالب.

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو في الصلاة، وهو الذي خنقه بردائه، وكاد يقتله لولا أن يعترض أبو بكر رضي الله عنه، فلما أمر بقتله قال: من للصبيبة يا محمد؟ قال: النار^(١). قتله عاصم بن ثابت الأنصاري، ويقال علي بن أبي طالب.

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً من حيث وجهة الحرب، فلم يكونا من الأسارى فحسب، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث.

وفود التهئة:

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين - الذين كانوا قد خرجوا للتهئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهتفون بالفتح. وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهنتونا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: يا ابن أخي أولئك الملا.

وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك، وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها غير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: صدقت.

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفراً منصوراً، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحوها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبدالله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

(١) روى ذلك أصحاب الصحاح، انظر سنن أبي داود مع حاشيته عون المعبود ١٢/٣.

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيراً، فكان الصحابة يأكلون التمر، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملاً بوصية رسول الله ﷺ.

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ وسلم المدينة استشار أصحابه في الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكيني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هواده للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر، وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: للذي عرض علي أصحابك: من أخذهم الفداء، فقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة - (١).

وأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ [٦٨، ٦٧: ٨].

والكتاب الذي سبق من الله هو قوله تعالى: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [٤٧: ٤]. ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا في الأرض، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط، بل كانوا أكابر مجرمي الحرب الذين لا يتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت.

واستقر الأمر على رأي الصديق فأخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٦.

درهم، إلى ثلاثة آلاف درهم، إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء.

ومن رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى، فأطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجمحي، وهو الذي قتله أسراً في أحد، وسياقي.

ومن على خنته أبي العاص بشرط أن يخلي سبيل زينب، وكانت قد بعثت في فداها بمال، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقعة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب، فخلها، فهاجرت، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبها، فخرجا حتى رجعا بها، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة.

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيباً مصقعاً، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب، احترازاً عن المثلة، وعن بطش الله يوم القيامة.

وخرج سعد بن النعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان، وكان ابنه عمرو بن أبي سفيان في الأسرى، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلي سبيل سعد.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال، وهذه السورة تعليق إلهي - إن صح هذا التعبير - على هذه المعركة، يختلف كثيراً عن التعليقات التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح.

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولاً - إلى التقصيرات والتقاريز الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم، وصدرت بعضها منهم، ليسعوا في تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التقاريز.

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين. ذكر لهم

ذلك لثلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتوح وفي المعارك.

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، وعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيده به.

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم، وقن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة.

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلام ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية، بل إنه يثقف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها.

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت زكاة الغطر، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الغطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى؛ تخميفاً لكثير من الأوزار التي يعانها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد الذي وقع في شوال سنة ٢ هـ. إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التي صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنيناً إلى رحمته ورضوانه بعدما أولاهم من النعم، وأيدهم به من النصر، وذكرهم بذلك قائلاً: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأوأم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ [٢٦: ٨].

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة، أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة، والذين كانوا أشد استياءً لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وهم المشركون، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي، وهم اليهود. فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظاً وحنقاً على المسلمين ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ [٥ : ٨٢] وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم، وهم عبدالله بن أبي وأصحابه، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظاً من الأوليين.

وكانت هناك فرقة رابعة، وهم البدو الضاربون حول المدينة، لم يكن يهتمهم مسألة الكفر والإيمان، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب، فأخذهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء.

وهكذا أحاطت الأخطار بالمسلمين من كل جانب، ولكن هذه الفرق تباينت في سلوكها إزاء المسلمين، وأخذ كل فريق الطريقة التي رآها كفيلة ببلوغ غايته. فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام، وتأخذ في طريق المؤامرات والدسائس والتحرشات والاستفزازات، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة، وتكاشف عن الحقد والغيط، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنقمة، وتهتم بالتعبئة العامة جهاراً، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها، تقول بأنه:

ولا بد من يوم أغر محجل يطول استعاعي بعده للنوادب
وفعلاً، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد، والتي كان لها أثر سيء على سمعة المسلمين وهيبتهم.

وقد لعب المسلمون دوراً هاماً للقضاء على هذه الأخطار، تظهر فيه عبقرية قيادة النبي ﷺ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها، ونذكر في السطور الآتية صورة مصغرة منها.

★ ★ ★

غزوة بني سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المحتشدة في عقر دارها، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الكدر^(١). ففر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاماً يقال له «يسار» فأعتقه.

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة. وقيل: ابن أم مكتوم^(٢).

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن استشاطوا غضباً، وجعلت مكة تغلي كالمرجل ضد النبي ﷺ، حتى تأمر بطلان من أبطلها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم، وهو النبي ﷺ.

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير - وكان عمير من شياطين قريش، ممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال

(١) الكدر، بالضم فالسكون: طير في لونها كدرة، وهو ماء من مياه بني سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

(٢) زاد المعاد ٢/٩٠، ابن هشام ٢/٤٣، ٤٤، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٣٦.

أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم.

فاغتمها صفوان وقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أو أسهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكنم عني شأني وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر. ثم دخل على النبي ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله علي، فأقبل عمير فلبه بجالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا علي رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بجالة سيفه في عنقه - قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا وقال: أنعموا صباحاً، فقال النبي ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة.

ثم قال: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟

قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خير السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أحكام في دينه، وأقرؤوه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر.

وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه، فحلفه صفوان أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير (١).

غزوة بني قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود. وقد كان حريصاً كل حرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة، وفعلاً لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً وهداً من نصوصها. ولكن اليهود الذي ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحرش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين. وهاك مثلاً من ذلك:

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس - وكان شيخاً (يهودياً) قد عسا (٢) عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في جاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قبيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مؤمهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواتب رجلان من الخيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئت رددناها الآن جذعة - يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدو عوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن

(١) ابن هشام ١/٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣. (٢) عسا الشيخ: كبر.

هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس (١) .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات في المسلمين ، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل ، كانوا يبثون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخره ؛ ليزرعوا بذور الشكوك في قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي ، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويمتنعون عن أدائه ، وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرصك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبت فليس لك علينا من سبيل (٢) .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التي عقدها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك ؛ حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد :

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزرأ في ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في قلوب الأقباصي والأداني ، تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر والعداوة ، وجأهروا بالبغي والأذى .

وكان أعظمهم حقداً وأكبرهم شراً كعب بن الأشرف - وسيأتي ذكره - كما أن أشرف طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة - في حي باسمهم - وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأواني ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

(١) ابن هشام ١/٥٥٥ ، ٥٥٦

(٢) ذكر المفرون نماذج لفعلاتهم هذه في تفسير سورة آل عمران وغيرها .

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتد طغيانهم، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين، حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم.

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم مغبة البغي والعدوان، ولكنهم ازدادوا في شرهم وغطرستهم.

روى أبو داود وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع. فقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً. قالوا: يا محمد، لا يغرناك من نفسك أنك قتلت نقرأ من قريش، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنت لم تلق مثلنا. فأنزل الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فتنتي الثقتا، فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة يرونها مثلهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ [٣: ١٢، ١٣].^(١)

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان بالسافر بالحرب، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه، وصبر وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي.

وازداد اليهود - من بني قينقاع - جراءة، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطراباً، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن أبي عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهي غافلة - فلما قامت انكشفت سواتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهودياً - فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.^(٢)

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عيل صبر رسول الله ﷺ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر،

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ٣/١١٥، ابن هشام ١/٥٥٢. (٢) ابن هشام ٢/٤٧، ٤٨.

وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبدالمطلب، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصروهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب - الذي إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذف في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبدالله بن أبي بن سلول بدوره النفاقي، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفواً، فقال: يا محمد: أحسن في موالي - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرر ابن أبي مقاتله، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: ويحك، أرسلني. ولكن المنافق مضى على إصراره، وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر.

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق - الذي لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالمراعاة، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم. وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، فأخذ منها ثلاث قسي ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمس غنائمهم، وكان الذي تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة^(١).

غزوة السويق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغارم ظاهر الأثر، يتعجل به؛ ليحفظ مكانة قومه، ويبرز ما لديهم من قوة، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب ليبر يمينه، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب، من المدينة على بريد أو نحوه، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهاراً، فقام بعمل هو أشبه بأعمال الفرصنة، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جنح الظلام، فأتى حيي

(١) زاد المعاد ٢/٧١، ٩١، ابن هشام ٢/٤٧، ٤٨، ٤٩.

ابن أخطب، فاستفتح بابه، فأبى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم - سيد بني النضير، وصاحب كنزهم إذ ذاك، فاستأذن عليه فأذن، فقراه وسقاه الخمر، وبطن له من خبر الناس، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث مفرزة منهم، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها «العريض»، فقطعوا وأحرقوا هناك أسواراً من النخل، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه، ولكنهم فروا ببالغ السرعة، وطرحوا سويقاً كثيراً من أزوادهم وتمويناتهم يتخفون به، فتمكنوا من الإفلات، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق، وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر (١).

غزوة ذي أمر

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣ هـ.

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة وبحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عمان.

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو.

وتفرق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدم جيش المدينة. أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم، وهو الماء المسمى «بذي أمر» فأقام هناك سهراً

(١) زاد المعاد ٢/٩٠، ٩١، ابن هشام ٣/٤٤، ٤٥.

كله - من سنة ٣ هـ - أو قريباً من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين، ويستولي عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة (١).

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ﷺ، وتظاهراً بالدعوة إلى حربه.

كان من قبيلة طيء - من بني نبهان - وأمه من بني النضير، وكان غنياً مترفاً معروفاً بجماله في العرب، شاعراً من شعرائها، وكان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير.

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صنديد قريش في بدر قال: أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوهم، ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب ابن أبي وداعة السهمي، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ، ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً؟ فقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً، وأفضل، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ [٤: ٥١].

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشب في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذبهن بسلاطة لسانه أشد الإيذاء.

وحينئذ قال رسول الله ﷺ: من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله، فانتدب له محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، وأبو نائلة - واسمه سلكان بن سلامة، وهو

(١) ابن هشام ٤٦/٢، زاد المعاد ٩١/٢، ويذكرون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعشور أو غورث المحاري كانت في هذه الغزوة. والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٥٩٣/٢.

أخو كعب من الرضاعة - والحارث بن أوس، وأبو عيس بن حبر، وكان قائد هذه المفزة محمد بن مسلمة.

وتفيد الروايات في قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال: من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله، فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: قل.

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا. قال كعب: والله لتملنه.

قال محمد بن مسلمة: فإننا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

قال كعب: نعم أرهنوني.

قال ابن مسلمة: أي شيء تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجل العرب؟

قال: فترهنوني أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين. هذا عار علينا، ولكننا نرهنك اللأمة، يعني السلاح. فواعده أن يأتيه.

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة، فقد جاء كعباً فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة، ثم قال له: ويحك يا ابن الأشرف، إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فآكتم عني.

قال كعب: افعل.

قال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة، وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن أتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك. وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصدا، فإن كعباً لن ينكر معها السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار.

وفي ليلة مقمرة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ - اجتمعت هذه

المفرزة إلى رسول الله ﷺ ، فشيّعهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطلق يصلي ويناجي ربه .
وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ، فقالت له امرأته - وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعي إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفخ رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن نتأشى إلى شعب العجوز فتحدث بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا يتأشون ، فقال أبو نائلة وهو في الطريق : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ، وزهى كعب بما سمع ، فقال : عندي أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه فشمه وأشم أصحابه .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لمثلها ، حتى اطمأن .
ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئاً ، فأخذ محمد بن مسلمة معولاً فوضعه في ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع عدو الله قتيلاً ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفرزة حرة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه ، حتى إذا بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم ، فعرف أنهم قد قتلوه ، فكبر ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك يا رسول الله . ورموا برأس الطاغية بين أيديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ولم يؤذ بعده^(١) .

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيدة ،

(١) أخذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٢/٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وصحيح البخاري ١/٣٤١ ، ٤٢٥ ، ٢/٥٧٧ ، وسنن أبي داود مع عون المعبود ٢/٤٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٢/٩١ .

وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصيح لا يجدي نفعاً لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق، فلم يحركوا ساكناً لقتل طاغيتهم، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها.

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا ينوسونها، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى.

★ ★ ★

غزوة بجران

وهي دورية قتال كبيرة، قوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها بجران - وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة، وم يلق حرباً (١).

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣ هـ.

وتفصيلها أن قريشاً بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام، فأخذها هم آخر.

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي انتخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام -: إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين

(١) ابن هشام ٥٠/٢، ٥١، وزاد المعاد ٩١/٢، واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة فقيل: إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بني سليم يمشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها، وقيل: بل خرج يريد قريشاً، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم - حتى لم يذكر الأول رأساً - وهو الوجه، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع.

نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان - من بني بكر بن وائل - دليلاً له، يكون رائده في هذه الرحلة.

وخرجت عبر قريش يقودها صفوان بن أمية، آخذة الطريق الجديدة، إلا أن أبناء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة. وذلك أن سليط بن النعمان - وكان قد أسلم - اجتمع في مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشجعي - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها، فأسرع سليط إلى النبي ﷺ يروي له القصة.

وجهر رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له قردة - بالفتح فالسكون - فاستولى عليها كلها، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة.

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان، وقيل: ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة، قدرت قيمتها بمائة ألف، قسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ (١).

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر، اشتد لها قلق قريش، وزادتها همًا وحزنًا. ولم يبق أمامها إلا طريقان، إما أن تمتنع عن غطرتها وكبرياتها، وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم، وتقضي على قوات المسلمين، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذلك، وقد اختارت مكة الطريق الثانية، فازداد إصرارها على المطالبة بالنار، والتهيو للقاء المسلمين في تعبئة كاملة، وتصميمها على الغزو في ديارهم، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوي لمعركة أحد.

★ ★ ★

(١) ابن هشام ٢/٥٠، ٥١، فقه السيرة ص ١٩٠، رحمة للعالمين ٢/٢١٩.

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجهش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى إثر غزوة بدر انفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفي غيظها، وتروي غلة حقدتها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبدالله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجح بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أموالهم لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [٣٦: ٨].

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعاً من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر - الذي كان قد أسر في بدر فمَنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بأن لا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفاظهم، كما اختاروا شاعراً آخر - مسافع بن عبد مناف الجمحي - لنفس المهمة.

وكان أبو سفيان أشد تأليباً على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويق خائباً لم ينل ما في نفسه، بل أضاع مقداراً كبيراً من تمويناته في هذه الغزوة.

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشاً أخيراً في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهجم ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

قوام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة وكان سلاح الثقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ومن سلاح الفرسان مائتا فرس^(١) جنوبها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع.

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد، يعاونه عكرمة بن أبي جهل، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت التارات القديمة والغنيط الكامن يشعل البغضاء في القلوب، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير.

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدَّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلومتراً - في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء.

(١) زاد المعاد ٩٢/٢ وهو المعروف، وفي فتح الباري مائة فرس ٣٤٦/٧.

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أبي بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار.

استعداد المسلمين للطوارئ:

وظلت المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارق رجالها السلاح، حتى وهم في الصلاة، استعداداً للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار - فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عباد - بحراسة رسول الله ﷺ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح. وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها، خوفاً من أن يؤخذوا على غرة.

وقامت دوريات من المسلمين - لاكتشاف تحركات العدو - تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش المكي إلى أسوار المدينة:

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسة المعتادة، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - بنش قبر أم رسول الله ﷺ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب.

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة، فسلك وادي العقيق ثم انحرف منه إلى ذات البمين، حتى نزل قريباً بجبل أحد في مكان يقال له عينين، في بطن السبخة، من قاة على شفير الوادي - الذي يقع شمالي المدينة - فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خيراً بعد خبر، حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال: إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقرأ يدبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، وتأول

البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلثة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

ثم قدم رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأي. ووافق على هذا الرأي عبدالله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج. ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التبعاد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أخرج ساعته على الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم.

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وألحوا عليه في ذلك، حتى قال قائلهم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنًا عنهم.

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - الذي كان قد أرى فرند سيفه في معركة بدر - فقد قال للنبي ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة^(١).

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأي الأغلبية، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر.

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، وفرح الناس بذلك.

ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي، ثم دخل بيته، ومعه

(١) السيرة الحلبية ١٤/٢.

صاحبه أبو بكر وعمر، فعماه والبساه، فتدجج بسلاحه، وظاهر بين درعين (أي لبس درعاً فوق درع)، وتقلد السيف، ثم خرج على الناس.

وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فردوا الأمر إليه، فندموا جميعاً على ما صنعوا، فلما خرج قالوا له: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل. فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمة - وهي الدرع - أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه^(١).

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب:

- ١ - كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدي.
- ٢ - كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.
- ٣ - كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

وكان الجيش متألفاً من ألف مقاتل، فيهم مائة دارع وخمسون فارساً^(٢)، وقيل لم يكن من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وأذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دراعين.

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج^(٣)، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين، فسأل: هل أسلموا؟ فقالوا: لا. فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له «الشيخان» استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال، وكان منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن

(١) رواه أحمد والنسائي ومحاكم وابن إسحاق.

(٢) قاله ابن القيم في الهدى ٢، ٩٢. وقال ابن حجر: هو غلط بين. وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة (فتح الباري ٣٥٠/٧).

(٣) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بني قينقاع (٣٤/٢) ومعلوم أن بني قينقاع كان قد تم إجلأؤهم عقب بدر.

ظهري، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة الأنصاري، وسعد بن حبة، ويذكر في هؤلاء البراء بن عازب، لكن حديثه في البخاري يدل على شهوده القتال ذلك اليوم.

وأجاز رافع بن خديج، وسمرة بن جندب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع. أنا أصرعه، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه، فتصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه أيضاً.

المبيت بين أحد والمدينة:

وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، وانتخب خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري، بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة.

تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه:

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر، وكان بمقربة جداً من العدو فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبدالله بن أبي المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر - ثلاثمائة مقاتل - قائلاً: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره.

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى. بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد - في ذلك الظرف الدقيق - أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما يهدف إليه، فقد همت طائفتان - بنو حارثة

من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج - أن تفشلا، ولكن الله تولاها، فثبتنا بعد ما سرى فيها الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذَا هَمَّتْ صَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا، وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٣: ١٢٢].

وحاول عبدالله بن حرام - والد جابر بن عبدالله - تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوجههم ويحضهم على الرجوع، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعم أنكم تقاتلون لم نرجع. فرجع عنهم عبدالله بن حرام قائلاً: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [٣: ١٦٧].

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ ببقية الجيش - وهم سبعمائة مقاتل - ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة، فقال: من رجل يخرج بنا على القوم من كئيب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم؟

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرة بني حارثة وبمزارعهم، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب.

ومر الجيش في هذا الطريق بجائط مربع بن قبيظي - وكان منافقاً ضريب البصر - فلما أحس بالجيش قام يحشو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه، فقال: لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر.

ونفذ رسول الله ﷺ، حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهياهم صفوفاً للقتال، فانتخب منهم فصيلة من

الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطى قيادتها لعبدالله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي.

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فائت مكانك لا نؤتين من قبلك^(١). ثم قال للرماة احموا ظهورنا، فإن رأيتونا نقتل فلا تصرونا، وإن رأيتونا قد غنمنا فلا تشركونا^(٢)، وفي رواية البخاري أنه قال: إن رأيتونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتونا هزمنا القوم ووطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم^(٣).

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلثة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بمحركات الالتفاف وعملية التطويق.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على المسيرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبراعة، والذين يوزنون بالآلاف.

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبي ﷺ العسكرية - وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا - فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حوى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحوى ميسرته وظهره - حين يحتدم القتال - بسد الثلثة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمي به - إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين - ولا يلتجئ إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا

(١) ابن هشام ٦٥/٢، ٦٦.

(٢) روى ذلك أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس. انظر فتح الباري ٧/٣٥٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد ٤٢٦/١.

احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عوض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ .

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش :

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحرص أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه ، حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ليأخذوه - منهم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب - حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني . قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل يتبختر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن .

نعبئة الجيش المكي :

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش ، وجعلوا على اليمين خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشركاً - وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة النبل عبدالله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب - كما أسلفنا في أوائل المقالة - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك ، تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابراً عن كابر ، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر

حامل لوائهم النضر بن الحارث، وقال لهم ليستفز غضبهم ويشير حميتهم: يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيت، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

ونجح أبو سفيان في هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب، وهموا به وتواعدوه، وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم.

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين. فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: «خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم» ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال، فقد رد عليه الأنصار رداً عنيفاً، وأسمعوه ما يكره.

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض، فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو بن صيفي، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة).

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان وبدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة.

جهود نسوة قريش في التحميس:

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، يستنهضن الرجال،

ويحرضن على القتال، ويثرن خفاظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

ويها بنى عبد الدار ويها حاة الأذبار
ضرباً بكل بتار

وتارة يأذن قومهن على القتال وينشدن:

إن تقبلوا نعانق ونفـرش النـمارق
أو تدبروا نـفـارق فـراق غير وامق

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان، وتدانث الفتتان، وبدأت مراحل القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جبل، يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير، ولم يمهله بل وثب وثبة الليث، حتى صار معه على جملة، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه.

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع، فكبر وكبر المسلمون، وأثنى على الزبير، وقال في حقه: إن لكل نبي حوارياً، وحواريي الزبير^(١).

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين. فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة، فحملة أخوه أبو شيبه عثمان بن أبي طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقاً أن تخضب الصعدة أو تندقسا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرتة، فبانث رثته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ١٨/٢.

حنجرته، فأدلع لسانه ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البزار، فتقدم إليه علي بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه علي فقتله.

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقض عليه الزبير ابن العوام حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوها الجللاس بن طلحة بن أبي طلحة، فطعنه طلحة ابن عبيدالله طعنة قضت على حياته، وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتل عليه.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة عبدالله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين، ثم حملة من بني عبد الدار أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبي طالب، وقيل: حمزة بن عبد المطلب، ثم حملة شريح بن قارظ فقتله قزمان - وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام - ثم حملة أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدي، فقتله قزمان أيضاً، ثم حملة ولد لشرحبيل بن هاشم العبدي فقتله قزمان أيضاً.

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار - من حملة اللواء - أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء، فتقدم غلام لهم حبشي - اسمه صواب - فحمل اللواء، وأبدي من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يده، فبرك على اللواء ب صدره وعنقه، لثلا يسقط حتى قتل وهو يقول: اللهم هل أعذرت؟ يقول أعذرت^(١).

وبعد أن قتل هذا الغلام - صواب - سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقي ساقطاً.

القتال في بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود، وهم يقولون «أمت، أمت»، كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد.

(١) كان بلسانه لكنه يقلب الذال إلى الزاي.

أقبل أبو دجانة معلماً بعصابته الحمراء ، آخذاً بسيف رسول الله ﷺ مصمماً على أداء حقه ، فقاتل حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقي مشركاً إلا قتله ، وأخذ يهد صفوف المشركين هذا . قال الزبير بن العوام : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعني ، وأعطاه أبا دجانة ، وقلت أي في نفسي : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله فاتاه إياه وتركتي ، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفسح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول^(١) أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله ، كان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا زفف عليه ، فجعل كل واحد منها يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينها فالتقيا ، فاختلعا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله^(٢) .

ثم أمعن أبو دجانة في هد الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش ، وهو لا يدري بها . قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يخمش الناس خشاً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم^(٣) .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظر ، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء : فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين ؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو في مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهاً لوجه في ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام .

(١) الكيول : آخر الصفوف . يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصفوف . بل يظل أبداً في المقدمة .

(٢) ابن هشام ٢/٦٨ ، ٦٩ .

(٣) نفس المصدر ٢/٦٩ .

مصراع أسد الله حمزة بن عبد المطلب:

يقول قاتل حمزة وحشي بن حرب: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة ابن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس - وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطيء بها شيئاً - فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبعه، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهد الناس هدأ ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهدأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلي يا ابن مقطعة البظور - وكانت أمه ختانة - قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه^(١).

قال: وهزرت حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، فوقعت في ننته - أحشائه - حتى خرجت من بين رجله، وذهب لينوء نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت^(٢).

السيطرة على الموقف:

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله، فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر ابن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيدالله، وعبدالله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فلَّ عزائم المشركين، وفتت في أعضادهم.

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل - وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق، والذي مضى ذكره قريباً - كان حنظلة حديث عهد بالعرس، فلما سمع هواتف الحرب - وهو على امرأته - انخلع من أحضانها،

(١) أخطأ رأسه، يقال عند المبالغة في الإصابة.

(٢) ابن هشام ٦٩/٢، ٧٠، ٧١، ٧٢، صحيح البخاري ٥٨٣/٢ - أسلم وحشي هذا بعد معركة الطائف، وقتل مسيلمة الكذاب بجرته تلك، وشهد اليرموك ضد الرومان.

وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال، أخذ يشق الصفوف، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبي سفيان، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد ابن الأسود فضربه حتى قتله.

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت للفصيلة التي عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفعة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبله والإرتباك في صفوفهم، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجباتهم الثلاث^(١).

الهزيمة تنزل بالمشركين:

هكذا دارت رحى الحرب الزبون، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطراً على الموقف كله، حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا يضع مئات قلائل، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين.

وبعد أن بذلت قریش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت هممتها، حتى لم يجترىء أحد منها أن يدنو من لوائها، الذي سقط بعد مقتل صواب، فيحمله ليدور حوله القتال - فأخذت في الإنسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والإنقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها. روى عبدالله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم - سوق - هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، مادون أخذهن قليل ولا كثير... إلخ^(٢) وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح: فلما لقيناهم هربوا، حتى رأيت النساء

(١) انظر فتح الباري ٣٤٦/٧.

(٢) ابن هشام ٧٧/٢.

يشدون في الجبل، يرفعن سوقهن قد بدت خلايلهن^(٣). وتبع المسلمون المشركين، يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم.

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سبباً في مقتل النبي ﷺ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة، لكن على رغم هذه الأوامر المشددة؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو، غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ أما قائدهم عبدالله بن جبير، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلتق لهذا التذكير بالآ، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصين من الغنيمة^(١). ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه في جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقعهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا.

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي:

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبدالله بن جبير وأصحابه، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهي عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادى بعضهم

(١) صحيح البخاري ٥٧٩/٢.

(٢) روى ذلك البخاري من حديث البراء بن عازب ٤٣٦/١

بعضاً، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شقي الرحى.

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله ﷺ حينئذ في مفرزة صغيرة - تسعة نفر من أصحابه (١) - في مؤخرة المسلمين (٢)، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغته كاملة، فكان أمامه طريقان، إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد.

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادي أصحابه: عباد الله، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطباً بنفسه في هذا الظرف الدقيق. وفعلاً فقد علم به المشركون فخلصوا إليه، قبل أن يصل إليه المسلمون.

تبدد المسلمين في الموقف:

أما المسلمون فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم، فلم تكن تهمها إلا أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهي لا تدري ماذا وراءها؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزوا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض. روى البخاري عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم - أي احترزوا من ورائكم - فرجعت أولاهم، فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليان، فقال: أي عباد الله أي أبي. قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتله، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله (٣).

(١) في صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه ﷺ أفرد يوم أحد فدى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

(٢) يدل عليه قوله تعالى: والرسول يدعوكم في أخراكم. (١٥٣/٣).

(٣) صحيح البخاري ٥٣٩/١، ٥٨١/٢، وفتح الباري ٣٥١/٧، ٣٦٢، ٣٦٣ وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه. فقال حذيفة: تصدقت بدينه على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ. انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٤٦.

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها إرتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون، لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح: إن محمداً قد قتل. فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية، أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكيناً، وفكر آخرون في الإتصال بعبدالله بن أبي - رأس المنافقين - ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان.

ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدم فلقى سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واهل لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته - بعد نهاية المعركة - ببناها، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم^(١).

ونادى ثابت بن الدحاح قومه، فقال: يا معشر الأنصار، إن كان محمد قد قتل، فإن الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتبية فرسان خالد، فما زال يقاتلهم، حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه^(٢).

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم^(٣).

وبمثل هذا الإستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الإستسلام أو الإتصال بابن أبي، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبي ﷺ كذب مختلق، فزادهم ذلك قوة على قوتهم، فنجحوا في الإفلات عن التطويق، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

(٣) زاد المعاد ٢/٩٦.

(١) زاد المعاد ٢/٩٣، ٩٦ صحيح البخاري ٢/٥٧٩.

(٢) السيرة الحلبية ٢/٢٢.

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ ، وعمل التطويق في بدايته ، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة - عليه الصلاة والسلام والتحية - صاروا في مقدمة المدافعين .

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ :

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أوامر التطويق ، تطحن بين شقي رحى المشركين ، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إليّ ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه ، فكروا إليه وهاجموه ، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين ، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ، ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني والبراعة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قریش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أي القرشيين - ما أنصفنا أصحابنا (١) . وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن ، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط (٢) .

أخرج ساعة في حياة الرسول ﷺ :

وبعد سقوط ابن السكن بقي الرسول ﷺ في القرشيين فقط ، ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال : لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيدالله وسعد (بن أبي وقاص) (٣) وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة ،

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ١٠٧/٢ .

(٢) وبعد لحظة فاهت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدناه من رسول الله ﷺ ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٨١/٢) .

(٣) صحيح البخاري ٥٢٧/١ ، ٥٨١/٢ .

فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوق لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبدالله بن شهاب الزهري، فشجه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبدالله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذاها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسخ الدم عن وجهه: أقمك لله (١).

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته، وشج في رأسه، فجعل يسلك الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ (٢).

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ: اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله، ثم مكث ساعة ثم قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٣). وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٤)، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون (٥).

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا - وهما إثنان فحسب - سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال: ارم فداك أي

(١) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة وانصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه، فوافاهما على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحاً أوداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح الباري ٣٧٣/٧) وعند الطبراني فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح الباري ٣٦٦/٧).

(٢) صحيح البخاري ٥٨٢/٢، وصحيح مسلم ١٠٨/٢.

(٣) فتح الباري ٣٧٣/٧.

(٤) صحيح مسلم باب غزوة أحد ١٠٨/٢.

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨١/١.

وأُمي (١). ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد. (٢).
وأما طلحة بن عبيدالله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول
الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار. قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال:
من للقوم، فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحداً بعد واحد
بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة، قال جابر: ثم قاتل
طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حسن، فقال النبي
ﷺ لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون، قال: ثم رد الله المشركين (٣).
ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين، أو خمساً وثلاثين، وشلت
إصبعه، أي السبابة والتي تليها (٤).
وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة سلاء، وقي بها النبي
ﷺ يوم أحد (٥).

وروى الترمذي أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ: « من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه
الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله » (٦).
وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال:
ذلك اليوم كله لطلحة (٧).
وقال فيه أبو بكر أيضاً:

يا طلحة بن عبيدالله قد وجبت لك الجنان وبوات المها العينا (٨)
وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففي الصحيحين
عن سعد. قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقانلان عنه، عليهما
ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتها قبل ولا بعد. وفي رواية يعني جبريل وميكائيل (٩).

(١) (٢، ١) صحيح البخاري ٤٠٧/١، ٥٨٠/٢، ٥٨١.

(٢) فتح الباري ٣٦١/٧. وسنن النسائي ٥٢/٢، ٥٣.

(٣) نفس المصدر الأول ٣٦١/٧.

(٤) صحيح البخاري ٥٢٧/١، ٥٨١/٢.

(٥) مشكاة المصابيح ٥٦٦/٢، ابن هشام ٨٦/٢.

(٦) فتح الباري ٣٦١/٧.

(٧) مختصر تاريخ دمشق ٨٢/٧ (من هامش شرح شذور الذهب ص ١١٤).

(٨) صحيح البخاري ٥٨٠/٢.

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ :

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة. وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تطور الموقف، أو يسمعون صوته ﷺ، حتى أسرعوا إليه، لثلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات - وستة من الأنصار قد قتلوا، والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقابته من ضربات العدو، ورد هجماتهم، وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ، فكنت أول من فاء إلى النبي ﷺ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فذاك أبي وأمي، كن طلحة، فذاك أبي وأمي، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير، حتى لحقتني، فدفعتنا إلى النبي ﷺ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً، فقال النبي ﷺ: دونكم أخاكم فقد أوجب، وقد رمى النبي ﷺ في وجنته، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، فذهبت لأنزعها عن النبي ﷺ فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني. قال: فأخذ بفيه، فجعل ينفضه كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ. ثم استل السهم بفيه، فندرت ثنية أبي عبيدة، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني، قال فأخذه فجعل ينفضه حتى استله، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله ﷺ: دونكم أخاكم، فقد أوجب، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه. وقد أصابته بضع عشرة ضربة^(١). (وهذا أيضاً يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم في الكفاح والنضال).

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين، منهم أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري. وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وسهل بن حنيف، وأبو طلحة.

(١) زاد المعاد ٢/٩٥.

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم، وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجحشت ركبته، وأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائماً، وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبدالله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجبا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله أنه منا ممنوع. فخرجنا أربعة. فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك^(١).

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيراً. كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو. قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يديه محبوب عليه بحجفة له، وكان رجلاً رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر معه بجمعة من النبل، فيقول: انثرها لأبي طلحة. قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك^(٢).

وعنه أيضاً قال: كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ، فينظر إلى موقع نبله^(٣).

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ، فترس عليه بظهره، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص - الذي كسر الرباعية الشريفة - فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه. وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

(١) زاد المعاد ٩٧/٢. (٢) صحيح البخاري ٥٨١/٢. (٣) نفس المصدر ٤٠٦/١.

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله ﷺ على الموت، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها^(١)، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

وقاتل عبدالرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فخرج.

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه. فقال: بجه. فقال: والله لا أجه أبداً. ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. فقتل شهيداً.

وقاتلت أم عمارة، فاعترضت لابن قمئة في أناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً.

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى، ثم برك عليه ب صدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله - لشبهه به - فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح: إن محمداً قد قتل^(٢).

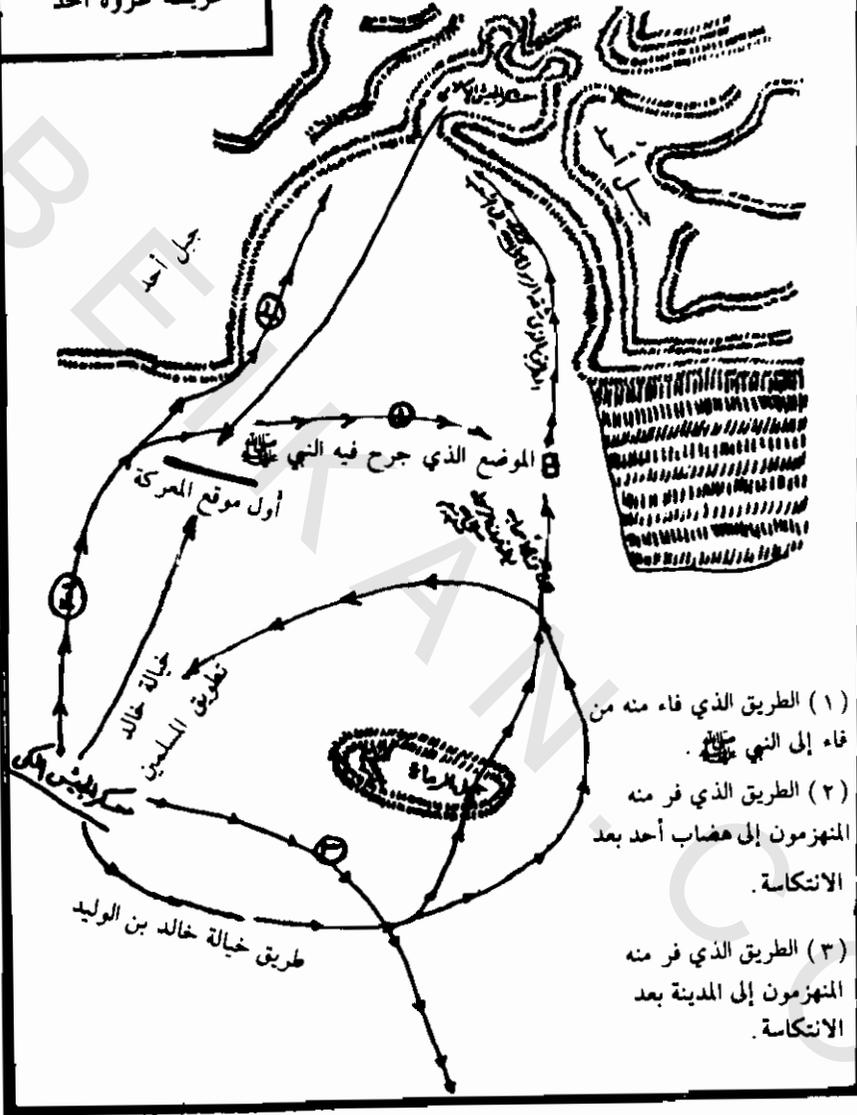
إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصباح دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين، وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمتها الفوضى والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض

(١) سيتها: ما عطف من طرفيها.

(٢) انظر ابن هشام ٧٣/٢، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، وزاد المعاد ٩٧/٢.

خريطة غزوة أحد



(١) الطريق الذي فاء منه من فاء إلى النبي ﷺ .

(٢) الطريق الذي فر منه المنهزمون إلى هضاب أحد بعد الانتكاسة .

(٣) الطريق الذي فر منه المنهزمون إلى المدينة بعد الانتكاسة .

التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين.

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب، فقاتل قتالاً شديداً، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك بطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون.

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم، فعرفه كعب بن مالك - وكان أول من عرفه - فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أن أصمت؛ وذلك لثلا يعرف موضعه المشركون، إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالي ثلاثين رجلاً من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا. وقام رسول الله ﷺ لمواجهته. إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصمة، فضرب على رجله فأقعده، ثم ذفف عليه، وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله ﷺ.

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصمة، فضرب بالسيف على عاتقه، فجرحه حتى حمله المسلمون، ولكن انقض أبو دجانة - البطل المغامر ذو العصاة الحمراء - على عبد الله بن جابر، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

وأثناء هذا القتال المرير، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمانة من الله، كما تحدث عنه القرآن. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه^(١).

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة - في انسحاب منظم - إلى شعب الجبل

(١) صحيح البخاري ٥٨٢/٢.

وشق لبقيّة الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به في الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ .

مقتل أبي بن خلف:

قال ابن إسحاق: فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد لا نجوتُ إن نجا؟. فقال القوم: يارسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة، فطعنه فيها طعنة تدأداً - تدحرج - منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمد. قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك (١) فوالله لو بصق عليّ لقتلني، فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون به إلى مكة (٢)، وفي رواية أبي الأسود عن عروة: أنه كان يخور خوار الثور ويقول: والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لमतوا جميعاً (٣).

طلحة ينهض بالنبي ﷺ:

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل، فنهض إليها ليعلوها، فلم يستطع، لأنه كان قد بدّن وظاهر بيت الدرعين، وقد أصابه جرح شديد. فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها وقال: أوجب طلحة (٤)، أي الجنة.

آخر هجوم قام به المشركون:

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب؛ قام المشركون بأخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينا رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت

- (١) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أي هذا، فيقول: يا محمد إن عندي العود فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ، بل أنا أقتلك إن شاء الله.
- (٢) ابن هشام ٨٤/٢، زاد المعاد ٩٧/٢.
- (٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٠.
- (٤) ابن هشام ٨٦/٢.

عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل^(١).

وفي مغازي الأموي أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: أجنهم - يقول: ارددهم - فقال: كيف أجنهم وحدي؟ فقال ذلك ثلاثاً، فأخذ سعد سهماً من كنانته، فرمى به رجلاً فقتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتي. فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه^(٢).

تشويه الشهداء:

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ. ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهبأون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتلى المسلمين، يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون، وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة، فلاكتها فلم تستطيع أن تسيغها، فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف خدماً - خلاخيل - وقلائد^(٣).

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفي هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان، تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم في سبيل الله.

١ - قال كعب بن مالك: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع الأمة يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم^(١)، وإذا رجل من المسلمين ينتظره، وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصري، فإذا الكافر أفضلها عدة وهيئة، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة^(٢).

(١) البداية والنهاية ١٧/٤.

(٢) ابن هشام ٩٠/٢.

(٣) نفس المصدر.

(٤) أي استجمعوا وانضموا.

(٥) زاد المعاد ٩٥/٢.

٢ - جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وأنها لمشمرتان - أرى خدم سوقهما - تنقزان القرب على متونها ، تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملاهما ، ثم تخبثان فتفرغانه في أفواه القوم ^(١) . وقال عمر : كانت (أم سليط) تزفر لنا القرب يوم أحد ^(٢) .

وكانت في هؤلاء النسوة أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تحثو في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وهلم سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقي الجرحى ، فرماها حبان (بالكسر) ابن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا يصل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان ، فوقع مستلقياً حتى تكشف ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجره ، ثم قال : استقاد لها سعد ، أجاز الله دعوته ^(٣) .

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب :

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب ، حتى ملأ درقته ماء من المهراس - قيل : هو صخرة منقورة تسع كثيراً وقيل : اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريجاً فعاغه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمی وجه نبيه ^(٤) .

وقال سهل : والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء وبما دووي ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها ، فاستمسك الدم ^(٥) .

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبي ﷺ ، ودعا له بخير ^(٦) ، وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً ^(٧) .

(١) صحيح البخاري ٤٠٣/١ ، ٥٨١/٢ . (٤) ابن هشام ٨٥/٢ . (٧) ابن هشام ٨٧/٢ .
(٢) نفس المصدر ٤٠١/١ . (٥) صحيح البخاري ٥٨٤/٢ .
(٣) السيرة الحلبية ٢٢/٢ . (٦) السيرة الحلبية ٣٠/٢ .

شهادة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف، أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه - وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله ما يسوءك، فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني.

ثم قال: اعل هبل.

فقال النبي ﷺ: ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل.

ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم.

فقال النبي ﷺ: ألا تجيبونه؟ قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فأجاب عمر، وقال: لا سواء، قتلنا في الجنة، وقتلناكم في النار.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلي يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: ائنه فانظر ما شأنه؟ فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر^(١).

مواعدة التلاقي في بدر:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد^(١).

التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتنطوا للإبل فإنهم يريدون

(١) ابن هشام ٩٣/٢، ٩٤، زاد المعاد ٩٤/٢، صحيح البخاري ٥٧٩/٢.

(٢) ابن هشام ٩٤/٢.

مكة.. وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزئهم. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة (١).

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجددك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأنتيته وهو بأخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمخ، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، ان رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجددك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته (٢).

ووجدوا في الجرحى الأصرم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سأله: ما الذي جاء بك؟ أحذب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ، فقال: هو من أهل الجنة. قال أبو هريرة: ولم يصل لله صلاة قط (٣).

ووجدوا في الجرحى قزمان - وكان قد قاتل قتال الأبطال، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبتته الجراحة، فاحتملوه إلى دار بني ظفر، وبشره المسلمون فقال: والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. فلما اشتد به الجراح نحر نفسه. وكان رسول الله ﷺ يقول: إذا ذكر له، إنه من أهل النار (٤) - وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوى إعلاء كلمة الله، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام، بل وفي جيش الرسول والصحابة.

(١) ابن هشام ٩٤/٢، وفي فتح الباري أن الذي خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبي وقاص (٣٤٧/٧).

(٢) زاد المعاد ٩٦/٢.

(٣) نفس المصدر ٩٤/٢، وابن هشام ٩٠/٢.

(٤) نفس المصدر الأول ٩٧/٢، ٩٨، وابن هشام ٨٨/٢.

وعلى عكس من هذا كان في القتيلى رجل من يهود بني ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فهالي لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: مخيريق خير يهود (١).

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء، فقال: أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمي جرحه اللون لون الدم، والريح ريح المسك (٢).

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فأمر أن يردوهم فيدفنوهم في مضاجعهم، وأن لا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بشبابهم بعد نزع الحديد والجلود، وكان يدفن الاثني والثلاثة في القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد، ويقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. ودفن عبدالله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة (٣).

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقده، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: سلوا أهله ما شأنه؟ فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. ومن هنا سمي حنظلة: غسل الملائكة (٤).

ولما رأى ما بمحزمة - عمه وأخيه من الرضاة - اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أباها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاة.

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكباً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد

(٣) زاد المعاد ٢/٩٨، وصحيح البخاري ٥٨٤/٢.

(٤) زاد المعاد ٢/٩٤.

(١) ابن مشام ٢/٨٨، ٨٩.

(٢) نفس المصدر ٢/٩٨.

المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشع من البكاء (١) والنشع: الشهيق.

وكان منظر الشهداء مرعباً جداً يفتت الأكباد. قال خباب: (إن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر (٢).

وقال عبد الرحمن بن عوف: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، وكفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، وروي مثل ذلك عن خباب، وفيه: «فقال لنا النبي ﷺ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر» (٣).

الرسول ﷺ يثني على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد، لما كان يوم أحد وانكفاً المشركون، قال رسول الله ﷺ: استنوا حتى أثنى على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال:

اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت. اللهم: ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول. اللهم: إني أسألك العون يوم العلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق (٤).

الرجوع إلى المدينة، ونوادير الحب والتفاني:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف

(١) رواه ابن شاذان، انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٥٥.

(٢) رواه أحمد، مشكاة المصابيح ١/١٤٠.

(٣) صحيح البخاري ٢/٥٧٩، ٥٨٤.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد في مسنده ٣/٤٢٤.

راجعاً إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنين الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة.

لقيته في الطريق حنة بنت جحش، فنَّعِيَّ إليها أخوها عبدالله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لمكان (١).

ومر بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوها لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها، حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة (٢).

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد أخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله أمني، فقال: مرحباً بها. ووقف لها. فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذ رأيتك سالماً، فقد اشتويت المصيبة (أي استقللتها). ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال: يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفَعُوا في أهلهم جميعاً. قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: اللهم اذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، واحسن الخلف على من خلفوا (٣).

الرسول ﷺ في المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ - إلى المدينة. فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم. وناولها علي بن أبي طالب سيفه: فقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة (٤).

قتلى الفريقين:

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة

(٣) السيرة الحلبية ٤٧/٢.

(٤) ابن هشام ١٠٠/٢.

(١) ابن هشام ٩٨/٢.

(٢) نفس المصدر ٩٩/٢.

من الأنصار، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً، واحد وأربعون من الخزرج، وأربع وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً، ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى لمشركين سبعة وثلاثون، لا إثنان وعشرون. والله أعلم (١).

حالة الطوارئ في المدينة:

بات المسلمون في المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع عن معركة أحد - وهم في حالة الطوارئ، باتوا - وقد أنهكهم التعب، ونال منهم أي نزال - يجرسون أنقاب المدينة ومدخلها، ويجرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة، إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب.

غزوة حراء الأسد:

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر في الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي.

قال أهل المغازي ما حاصله: إن النبي ﷺ نادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أحد، أي يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال، فقال له عبدالله بن أبي: أركب معك؟ قال: لا، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد، وقالوا: سمعاً وطاعة، واستأذنه جابر بن عبدالله، وقال: يا رسول الله، إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي، أسير معك، فأذن له.

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك.

(١) انظر ابن هشام ١٢٢/٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، فتح الباري ٣٥١/٧،

وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠.

رهنالك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الخلف، فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك - فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذه .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقاً، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وخدمهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

ويبدو أن هذا الرأي جاء سطحياً ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديراً صحيحاً، ولذلك خالفهم زعيم مسؤول « صفوان بن أمية » قائلاً: يا قوم، لا تفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أي من المسلمين في غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم. إلا أن هذا الرأي رفض أمام رأي الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة، ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبي معبد الخزاعي، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة - : محمد، قد خرج في أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الخنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول؟

قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم.

قال: فلا تفعل، فإني ناصح.

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكّي، وأخذته الفرع والرعب، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة، بيد أن أبا سفيان قام بجرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي، لعله ينجح في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة، وطبعاً فهو

ينجح في الاجتناب عن لقائه، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة، فقال: هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة: وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيياً بعاكظ إذا أتيتم إلى مكة؟

قالوا: نعم.

قال: فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة؛ لنستأصلة ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بجمراء الأسد، فأخبرهم بالذي قاله أبو سفيان، وقالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم أي زاد المسلمين قولهم ذلك - إيماناً ﴿وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾.

أقام رسول الله ﷺ بجمراء الأسد بعد - مقدمه يوم الأحد - الإثنين والثلاثاء والأربعاء - ١٠/٩/١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة. وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحي - وهو الذي كان قد من عليه من أسارى بدر؛ لفقره وكثرة بناته، على أن لا يظهر عليه أحداً، ولكنه نكث وغدر، فحرض الناس بشعره على النبي ﷺ والمسلمين كما أسلفنا، وخرج لمقاتلتهم في أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد أقلني، وامن علي، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، جد عبد الملك بن مروان لأمه، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه (١).

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد، وحمراء الأسد من ابن هشام ٦٠/٢ إلى ١٢٩، وزاد المعاد ٩١/٢ إلى ١٠٨، وفتح الباري ٣٤٥/٧ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخاري، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧، وقد أحلنا على المصادر الأخرى في مواضعها.

وما لا شك فيه أن غزوة حراء الأسد ليست بغزوة مستقلة، إنما هي جزء من غزوة أحد وتمتة لها، وصفحة من صفحاتها.

تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفصيلها، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأندح، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعاً، وأن دفعة القتال جرت لصالح الجيش المكي، لكن هناك أموراً تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح.

فما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يلتجئ إلى الفرار - مع الارتباك الشديد والفضي العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي، وأن أحداً من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام - كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال، قبل أن يتركها المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب، وكانت مفتوحة وخالية تماماً.

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي بعد عمل التطويق - وكثيراً ما يلقي الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصراً وفتحاً فكلنا وحاشا.

بل يؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانسراف، أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال، ويزداد ذلك تأكيداً حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حراء الأسد.

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حرباً غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة. وإلى هذا يشير قوله تعالى:

﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [٤ : ١٠٤] فقد شبه أحد العسكريين بالآخر في التألم وإيقاع الألم، مما ينيذ أن الموقفين كانا متماثلين، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

ونزل القرآن يلقي ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة ، ويبدى بتعليقات تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة، وأبدى النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبه في مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين، ففضحهم، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدىء بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مآباً للقتال﴾ [٣ : ١٢١] وتترك في نهايتها تعليقاً جامعاً على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى: ﴿ما كان الله ليجعل لكم الدين يتردى إليكم ولكن يبسط الدين ليعطى الطيبين﴾ وما كان الله يطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فأمنوا بالله ورسوله، وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم﴾ [٣ : ١٧٩] .

لحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاماً^(١) . وقال ابن حجر: قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تبلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من

(١) انظر زاد المعاد ٩٩/٢ إلى ١٠٨ .

ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقترضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهره من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم. ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس، وكسراً لشهاختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون. ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها. ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم. ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين^(١).

(١) فتح الباري ٧/٣٤٧.

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم، وتستأصل شأفتهم.

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة، ثم قامت قبائل عضل وقارة في شهر صفر سنة ٤ هـ بمكيدة، سببت في قتل عشرة من الصحابة، وفي نفس الشهر قامت بنو عامر بمكيدة مثلها، سببت في قتل سبعين من الصحابة، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٥ هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبي ﷺ، وتجرات بنو غطفان، حتى همت بالغزو على المدينة في جمادى الأولى سنة ٤ هـ.

فريح المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين - إلى حين - يهددون بالأخطار، ولكن تلك هي حكمة محمد ﷺ التي صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حمراء الأسد، فقد حفظ بها مقداراً كبيراً من سمعة جيشه، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمنافقين في الدهش والذهول، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم، بل زادت فيها، وفي الصفحة الآتية شيء من تفاصيلها:

سرية أبي سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمه، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومها ومن أطاعها، يدعون بني أسد بن خزيمه إلى حرب رسول الله ﷺ.

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء، وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمية في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا في الأمر، وأصاب المسلمون إبلاً وشاء لهم، فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ هـ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات^(١).

بعث عبدالله بن أنيس:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة ٤ هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبي ﷺ عبدالله بن أنيس ليقضي عليه.

وظل عبدالله بن أنيس غائباً عن المدينة ثماني عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالداً وجاء برأسه، فوضعه بين يدي النبي ﷺ، فأعطاه عصا، وقال: هذه آية بيني وبينك يوم القيامة، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه.

بعث الرجيع:

وفي شهر صفر من نفس السنة - أي الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة، وذكروا أن فيهم إسلاماً. وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي - في قول ابن إسحاق وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة - استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقرب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فدغد - وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً. فأما عاصم فأبى من النزول، وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة

(١) زاد المعاد ٢/١٠٨. (٢) نفس المصدر ٢/١٠٩، وابن هشام ٢/٦١٩، ٦١٠.

أخرى، فنزلوا إليهم، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدءاً، ولا تبق منهم أحداً، ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي
وفد خيروني الكفر والموت دونه
ولست أبالي حين أقتل مسلماً
ودلك في ذات الإله وإن يشأ
فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً
عندنا نضرب عنقه، وأنتك في أهلك؟ فقال:

لا والله ما يسرنني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.
ثم صلبوه واكلوا به من يجرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه، وكان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه حارثاً يوم بدر.

وفي الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رثي وهو أسير يأكل قطعاً من العنب، وما بمكة تمر.

وأما زيد بن الدثنة فأتبعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.
وبعثت قريش إلى عاصم ليؤثوا بشيء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيماً من عظائمهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر - الزنابير - فحمته من رسلهم؛ فلم يقدرُوا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً، وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته^(١).

(١) ابن هشام ١٦٩/٢ إلى ١٧٩، وزاد المعاد ١٠٩/٢، صحيح البخاري ٥٦٨/٢، ٥٦٩، ٥٨٥.

مأساة بشر معونة :

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى، وهي التي تعرف بوقعة بشر معونة.

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسته) قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك؛ لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث معه أربعين رجلاً - في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمعنق ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، حتى نزلوا بشر معونة - وهي أرض بين بني عامر وحرّة بني سليم - فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخاً أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لغيره بني عامر إلى قتال الباقيين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عصية ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أبناء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح؛ وأولئك ذهبوا في غدره شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة وجاء رجلاً من بني كلاب فنزلاً معه، فلما ناما فتك بها عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر

أصحابه ، وإذا معها عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينيها وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفائهم اليهود ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير كما سيذكر .

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألماً شديداً ، وتغلب عليه الحزن والقلق ، حتى دعا على هؤلاء القوم والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه ، ففي الصحيح عن أنس قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً ، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية ، ويقول : عصية عصت الله ورسوله ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قنوته .

عزوة بني النضير :

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعاً من الخيل ، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع ، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم ، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرؤوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافيقين وبالمشركين من أهل مكة سراً ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين .

وصبر النبي ﷺ ، حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعينوه في دية

- (١) انظر ابن هشام ١٨٣/٢ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ .
- (٢) ذكر الواقدي أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة .
- (٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٦٠ .
- (٤) البخاري ٥٨٦/٢ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .
- (٥) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ١١٦/٣ ، ١١٧ ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود .

الكلايين الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسأل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم.

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود.

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه. ولم يجد يهود مناصاً من الخروج، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين - عبدالله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾، وإن قوتلتم لنصركم ﴿وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان﴾. وهناك عادت لليهود ثقتهن، واستقر رأيهن على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حرجاً بالنسبة إلى المسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأيت كلب العرب عليهم، وفتكهم الشنيع ببعوثهم، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالمكارة، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً، وضاعفت نقيمتهم على مقترفيها، ومن ثم

قرررو أن يقاتلوا بني النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مها تكن النتائج..
فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب كبر وكبر أصحابه، ثم نهض
لمساجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم، وعلي بن أبي طالب
يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت
غيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفي ذلك يقول حسان:

وهان على سراة بني لسوي حريق بالبويرة مستطير
البويرة: اسم لنخل بني النضير، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ ما قطعتم من لينة أو
تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ [٥٩ : ٥] .

واعزلتهم قريظة، وخانهم عبدالله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن
يسوق لهم خيراً، أو يدفع عنهم شراً، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قستهم، وجعل مثلهم:
﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك ﴾ [٥٩ : ١٦] .

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله
في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهاؤوا للاستسلام ولإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله
ﷺ: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم
ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزّلوا على ذلك، وخرّبوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى
حل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حلوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير،
فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر، وذهبت
طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب،
فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم،
فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

وكانت أموال بني النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ، يضعها حيث
يشاء، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب،
فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف

الأنصارين لفقريهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكرع عدة في سبيل الله.

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٣٥ م.

وأُنزل الله في هذا الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفبيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبين أسماؤه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: قل: سورة النضير^(١).

غزوة نجد:

وهذا النصر الذي أحرزه المسلمون - في غزوة بني النضير - دون تضحيات توطد سلطانهم في المدينة، وتحاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم، وأمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد، وتوائبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران^(٢)، وبلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة.

فقبل أن يقوم النبي ﷺ بتأديب أولئك الغادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج، يجوس فيافي نجد، ويلقي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساء؛ حتى لا يعاودوا منكرهم التي ارتكبوها مع المسلمين.

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال. وهكذا أربب المسلمون هذه القبائل المغيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين.

وقد ذكر أهل المغازي والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون في أرض نجد في شهر ربيع الثاني أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع.

(١) ابن هشام ٢/١٩٠، ١٩١، ١٩٢، زاد المعاد ٢/٧١، ١١٠، صحيح البخاري ٢/٥٧٤، ٥٧٥.

(٢) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص ٢١٤.

أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلا شك فيه. وهذا الذي كانت تقتضيه ظروف المدينة، فإن موسم غزوة بدر التي كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب، وإخلاء المدينة، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب - لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعاً، بل كان لا بد من خضد شوكتهم، وكف شرهم قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة التي كانوا يتوقعون وقوعها في رحاب بدر.

وأما أن تلك الغزوة التي قادها الرسول ﷺ في ربيع أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هي غزوة الرقاع فلا يصح، فإن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما. وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وافى النبي ﷺ بخيبر. وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر، وبدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف، وكانت أول شرعية صلاة الخوف في غزوة عسفان، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق، وكانت غزوة الخندق في أواخر السنة الخامسة.

غزوة بدر الثانية:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب، وكفكفوا شرهم، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر، فقد استدار العام، وحضر الموعد المضروب مع قريش - في غزوة أحد - وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء^(١).

ففي شعبان سنة ٤ هـ يناير سنة ٦٢٦ م، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبدالله بن رواحة وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين.

وأما أبو سفيان، فخرج في ألفين من مشركي مكة، ومعهم خمسون فرساً، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة - ماء في تلك الناحية.

خرج أبو سفيان، من مكة متثاقلاً، يفكر في عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال

(١) كلمة محمد الغزالي في فقه السيرة ٣١٥.

للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جذب، وإني راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً، فقد رجع الناس ولم يبدوا أي مصادمة لهذا الرأي وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم في النفوس وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة وبدر الصغرى^(١).

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتنفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك المواليون والمعادون.

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل - قريبا من الشام - تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها، وأنها قد حشدت جمعا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ هـ، وأخذ رجلا من بني عذرة دليلا للطريق يقال له مذكور.

خرج يسير الليل ويكمن النهار؛ حتى يفاجيء أعداءهم وهم غارون، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، فهجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب.

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدا، وأقام رسول الله ﷺ أياما، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحدا، ثم رجع إلى المدينة، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن. ودومة بالضم، موضع معروف بمشارف الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة.

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٣/٣٠٩، ٣/١٠، زاد المعاد ٢/١١٢.

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة، وهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالى عليهم، وأحاطتهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وتم إجلاء قبيلة من اليهود، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وإيفاء العهود والمواثيق، واستكانت البدو والأعراب، وحادت قریش عن مهاجمة المسلمين، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين.

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود - الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم - لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر، فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين. ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم، تحرق هؤلاء اليهود أي تحرق.

وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وقريش قد أخلفت وعدها في الخروج إلى بدر، فرأت في ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً، فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعوته والمسلمين.

وفعلاً خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة - وقائدهم أبو سفيان - في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن ربيعة كما خرجت بنو أسد وغيرها.

واتجهت هذه الأحزاب، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه .
وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش
ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ .

ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت
أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ،
ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، لم تزل واضحة أناملها على العروق النابضة،
تتجسس الظروف، وتقدر ما يتمخض عن مجراها، فلم تكذب تتحرك هذه الجيوش عن
مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير .

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع خطة
الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على
قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضي الله عنه . قال سلمان: يا رسول الله، إنا
كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا - وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها
العرب قبل ذلك - .

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا
من الخندق أربعين ذراعاً .

وقام المسلمون بمجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في
عملهم هذا، ففي البخاري عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق،
وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا (١) ، فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار (٢)

وعن أنس: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون في
غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع
قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة
فقالوا مجيبين له :

(١) أكتادنا: بالثناة جمع كئيد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٢) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢ .

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً^(١)

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيت رسول الله ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعت برجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب، ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أئبنا

قال: ثم يمد بها صوته بأخرها، وفي رواية:

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أئبنا^(٢)

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع، ما يفتت الأكباد قال أنس: (كان أهل الخندق) يؤتون بجلء كفي من الشعر، فيصنع لهم بإهالة سبخة^(٣) نوضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الخلق ولها ريح متن.

وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين^(٤).

وبهذه المناسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، رأى جابر بن عبد الله في النبي ﷺ خصماً شديداً، فذبح بهيمة وطحنت امرأته صاعاً من شعر ثم التمس من رسول الله ﷺ سراً أن يأتي في نفر من أصحابه، فقام النبي ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هي، وبقي لعجين يخبز كما هو^(٥). وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله، فمرت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه. وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه يسقط من أطراف الثوب^(٦).

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر ٥٨٩/٢.

(٣) نفس المصدر ٥٨٨/٢. والإهالة: الدهن الذي يؤتدم به سواء كان زيتاً أو سمناً أو شحماً نسخة: أي تغير طعمها ولونها من قدمها.

(٥) روى ذلك البخاري ٥٨٨/٢، ٥٨٩.

(٦) ابن هشام ٢١٨/٢.

(٤) رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢.

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر - ولبنا ثلاثة لا ندوق ذواقاً - فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم^(١)، أي صار رملاً لا يتماك.

وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكىنا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني^(٢).

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رضي الله عنه^(٣).

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبي ﷺ يعلم كخبير عسكري حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمة المدينة - لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم في حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهلهم في المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المشودة، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة^(٤).

وأقبلت قريش في أربعة آلاف، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذب نقي إلى جانب أحد.

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ [٣٣: ٢٢].

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿وإذ يقول

(١) صحيح البخاري ٥٨٨/٢.

(٢) سنن النسائي ٥٦/٢، وأحد في مسنده واللفظ ليس للنسائي، وفيه عن رجل من الصحابة.

(٣) ابن هشام ٢١٩/٢. (٤) نفس المصدر ٣٣٠/٣، ٣٣١.

المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴿ [٣٣ : ١٢] .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار. وكان شعارهم «هم لا ينصرون»، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في أطام المدينة.

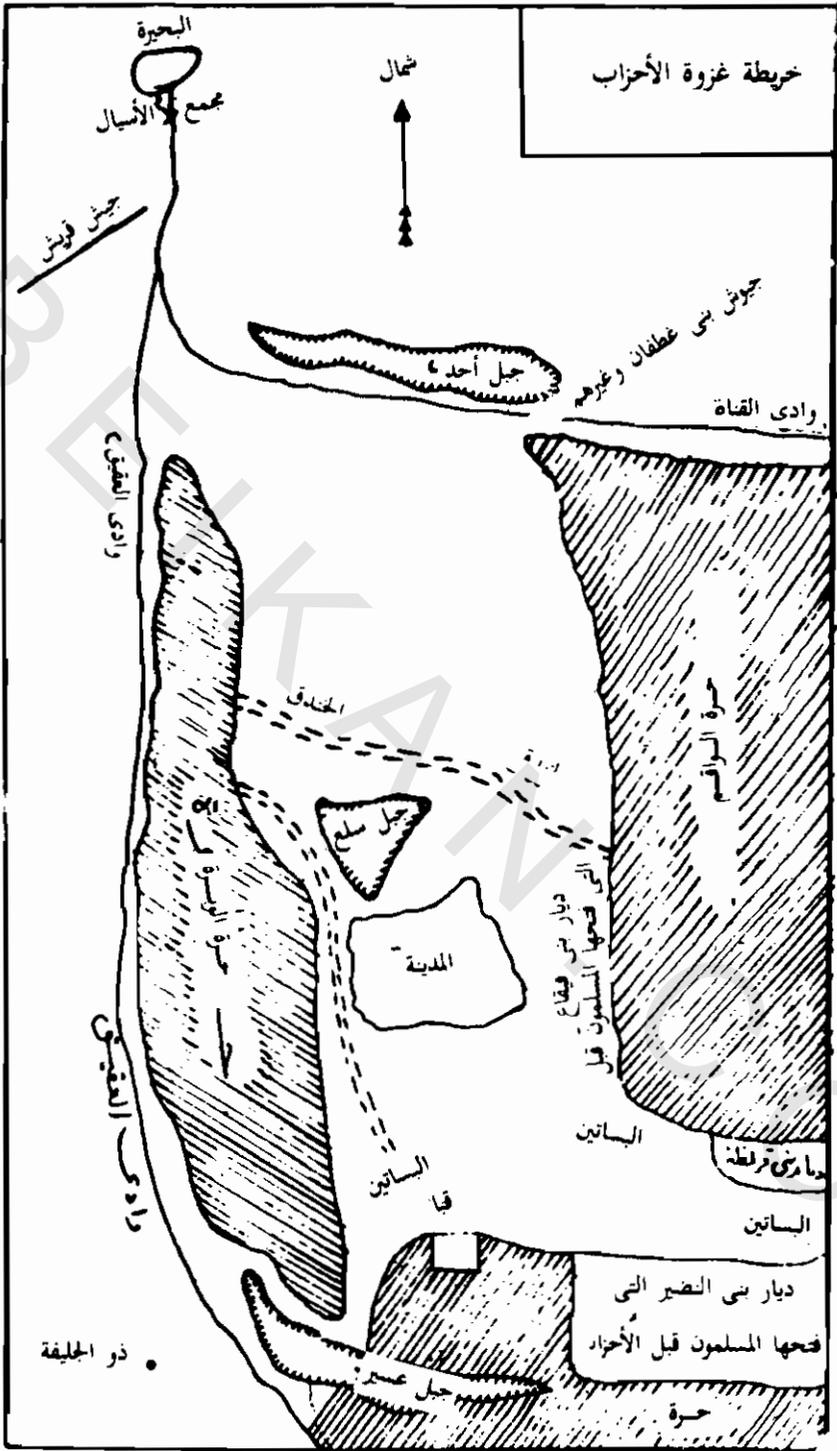
ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحذروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، لينبوا به طريقاً يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتميموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق ولسع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له علي بن أبي طالب، وقال كلمة حمي لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي، فتجاولا ونصاوا، حتى قتله علي رضي الله عنه، وانهمز الباقون حتى اقتحموا من الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة، لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل وناصلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش. فقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت



الشمس أن تغرب، فقال النبي ﷺ: وأنا والله ما صليتها، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب^(١).

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففي لبخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس^(٢).

وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حسبوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعاً. قال النووي: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها. انتهى^(٣).

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياماً، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف.

وفي هذه المراماة رُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأكل، رماه رجل من قريش يقال له حبان العرقة، فدعا سعد: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم؛ حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها^(٤). وقال في آخر دعائه: ولا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة^(٥).

وبينا كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعي الدس والتآمر تتقلب في جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادهم. انطلق كبير مجرمي بني

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٨٧، وشرح مسلم للنووي ٢٢٧/١.

(٤) صحيح البخاري ٥٩١/٣.

(٥) ابن هشام ٣٣٧/٣.

النضير إلى ديار بني قريظة، فأتى كعب بن أسد القرظي - سيد بني قريظة، وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم - فضرب عليه حيي الباب، فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وبيحر طام، جئتك بقريش على قاداتها وساداتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذنب نقيمي إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه، فهو يرعد ويرق، ليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين^(١).

وفعلًا قد قامت يهود بني قريظة بعمليات الحرب. قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارغ حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في غور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت، قالت: فقلت يا حسان، إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل إليه فاقتله. قال: والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فاحتجرت^(٢) ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان انزل إليه فأسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال: ما لي بسلبه من حاجة^(٣).

(١) ابن هشام ٢/٢٢٠، ٢٢١.

(٢) احتجرت: شدة وسطها.

(٣) ابن هشام ٢/٢٢٨، يحمل هذا الحديث على أن حساناً كان جباناً، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره، =

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمدة الرسول ﷺ أثر عميق في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الأطام والحصون في منعة من الجيش الإسلامي - مع أنها كانت خالية عنهم تماماً - فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملي على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جلاً.

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلي موقف قريظة، فيواجهه بما يجب من الواجهة العسكرية، وبعث لتحقيق الخبر السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وعبدالله بن رواحة، وخوات بن جبير، وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهرهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد. فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له، وقالوا: عضل وقارة، أي أنهم على غدر، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع.

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفتن الناس لجلية الأمر، فتجسد أمامهم خطر رهيب.

وقد كان أخرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونسائهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما يقول الله تعالى: ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾ [٣٣: ١٠، ١١] ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في

= وذلك أن الحديث ينقطع الإسناد، ولو صح لهجي به حسان، وإن صح الحديث فربما كان حسان معتلاً في ذلك اليوم، وهذا أولى ما تأول.

قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذا قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً ﴿٣٣: ١٢، ١٣﴾.

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً، حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روح الأمل، فنهض يقول: الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم، يفضي إلى تحاذل الأحزاب، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصلح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة؛ حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإحراق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً، وجرت المفاوضة على ذلك، فاستشار السعديين في ذلك، فقالوا: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيها وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، وقل حدهم، فكان مما هبأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي - رضي الله عنه - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة، فذهب من فوره إلى بني قريظة - وكان عشرين ألفاً في الجاهلية - فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم، قالوا فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش، وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم؟
قلوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه،
وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن
سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت من شوال - سنة ٥هـ - بعثوا إلى يهود: إننا لسنا بأرض مقام،
وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود إن اليوم
يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإننا لا نقاتل
معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم
والله نعيم، فبعثوا إلى يهود: إننا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز
محمداً. فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم،
وخارت عزائمهم.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» ودعا رسول
الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب،
اللهم اهزمهم وزلزلهم»^(١).

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين،
وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جنداً من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا
تدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولا طنباً إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جنداً من
الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم،
فوجدهم على هذه الحال، وقد تهبأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره
برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً، وكفاه
الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى
المدينة.

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، وأقام
لمشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهراً أو نحو شهر، ويبدو بعد الجمع بين

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٤١١/١، وكتاب المغازي ٥٩٠/٢.

المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال، ونهايته في ذي القعدة، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة. إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر؛ بل كانت معركة أعصاب، لم يجز فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تحاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم» (١).

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢.

غزوة بني قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبي طالب، وقدمه إلى بني قريظة فسار علي حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر أنا، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى أن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالاً، حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرساً، فنازلوا حصون بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد ﷺ في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم. وقد قال لهم: والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدون في كتابكم. وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مصلتين، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول

الله ﷺ وأصحابه، ويكبسوهم يوم السبت؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد (في انزعاج وغضب): ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره، وكان حليفاً لهم، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فلما رآوه قام إليه الرجال، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: يا أبا لبابة أتري أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم! وأشار بيده إلى حلقه، يقول إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ، حتى أتى المسجد النبوي بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يجله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء، مع شدة التعب الذي اعتراهم؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وصاح علي: يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حزة أو لأفتحن حصنهم.

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن سلمة الأنصاري، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج،

وهؤلاء مولينا، فأحسن فيهم، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة، لم يخرج معهم؛ للجرح الذي كان أصاب أكحله في معركة الأحزاب، فأركب حماراً، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فجعلوا يقولون وهم كنفية: يا سعد، أجل في مواليك فأحسن فيهم، فإن رسول الله ﷺ قد حكمتك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: قوموا إلى سيدكم. فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمتك. قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ - وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالاً له وتعظيماً - قال: نعم وعلي. قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسّم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع - كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وجحفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بني قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون لداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل. وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم.

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أخرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم - وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام - .

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حبي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيرة على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به - وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أتملة لثلاث يسلبها - مجموعة يدها إلى عنقه بجبل، قال لرسول الله ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه. وقتل من نسائهم امرأة واحدة، كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت، وترك من لم ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القرظي، فترك حياً، فأسلم، وله صحبة. واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت - فوهبهم له ثابت بن قيس وقال: قد وهبك رسول الله ﷺ إلي، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك. فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة، فضرب عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير، فأسلم، وله صحبة. واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس التجارية رفاعة بن سموأل القرظي، فوهبه لها، فاستحيتها، فأسلم، وله صحبة. وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول، فحقتوا دماءهم وأموالهم وذرارهم. وخرج تلك الليلة عمرو - وكان رجلاً لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ - فرآه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوي، فحلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، سهان للفارس وسهم للفارس، وأسهم للرجال سهماً واحداً، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري. فابتاع بها خيلاً وسلاحاً. واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه، هذا ما قاله ابن إسحاق^(١) وقال الكلبي: إنه ﷺ أعتقها، وتزوجها سنة ٦ هـ، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفنها بالبقيع^(٢).

(٢) تليق فهم أهل الأثر ص ١٢.

(١) انظر ابن هشام ٢/٢٤٥.

ولما أم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه - التي قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب - وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته . قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ، ما هذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغدوا جرحه دماً ، فمات منها (١) .

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ (٢) . وصحح الترمذي من حديث أنس : قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله » (٣) .

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خلاد بن سويد ، الذي ضرحت عليه الرحي امرأة من قريظة ، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتباً بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سحراً ، وهو في بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها ، وقالت لي : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس يطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فلما مر النبي ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة ٥ هـ ، ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة (٤) . وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الواقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تحذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

(١) صحيح البخاري ٥٩١/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٣٦/١ ، وصحيح مسلم ٢٩٤/٢ ، وجامع الترمذي ٢٢٥/٢ .

(٣) جامع الترمذي ٢٢٥/٢ .

(٤) ابن هشام ٢٢٧/٢ ، ٢٢٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢٣٣/٢ إلى ٢٧٣ وصحيح البخاري ٥٩٠/٢ ، ٥٩١ ، زاد المعاد ٧٢/٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمي اليهود، الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالموثن والأموال الكثيرة^(١)، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتله، وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس، فرغبت الخزرج في إحراز فضيلة مثل فضيلتهم؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

وأذن رسول الله ﷺ في قتله، ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بني سلمة من الخزرج، قائدهم عبدالله بن عتيك.

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خير، إذ كان هناك حصن أبي رافع، فلما دنوا منه - وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم - قال عبدالله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلني أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبدالله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب.

قال عبدالله بن عتيك: فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود^(٢) قال: فقممت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل. قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهمت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت. قلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: وما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخنه ولم أقتله. ثم وضعت طبة السيف في بطنه

(٢) أي المفاتيح على وتد.

(١) انظر فتح الباري ٣٤٣/٧.

حتى أخذ في ظهره، فعرفت أي قتله، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، ف وقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب. فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صاح الناعي على السور فقال: أنعمي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدثته فقال: ابسط رجلك، فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط^(١).

هذه رواية البخاري، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبي رافع، واشتركوا في قتله، وأن الذي تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبدالله بن أنيس، وفيه أنهم لما قتلوه ليلاً، وانكسرت ساق عبدالله بن عتيك حملوه، وأتوا منهراً من عيونهم، فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران، واشتدوا في كل وجه، حتى إذا يشؤا رجعوا إلى صاحبهم، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبدالله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ^(٢).

كان مبعث هذه السرية في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٥ هـ^(٣).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة، واقتص من مجرمي الحروب أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة.

سرية محمد بن مسلمة:

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً.

تحركت هذه السرية إلى القرطاء، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطن بني بكر بن كلاب، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم، فاستاق المسلمون نعماً وشاء، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمانية بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، كان قد خرج

(١) صحيح البخاري ٥٧٧/٢.

(٢) ابن هشام ٢٧٤/٢، ٢٧٥.

(٣) رحمة للعالمين ٢٢٣/٢ مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في غزوة الأحزاب وقريظة.

متنكراً لاغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب^(١)، فأخذه المسلمون، فلما جاؤوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه، ثم مرّ به مرة أخرى، فقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولاً، ثم مر مرة ثالثة فقال: بعد ما دار بينهما الكلام السابق - أطلقوا ثمامة، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض عليّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم على قريش قالوا: صبأت يا ثمامة، قال: لا والله، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ^(٢).

غزوة بني لحيان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع، وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦ هـ في مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران - واد بين أمج وعسفان، حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم - وسمعت به بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث سرايا، فلم يقدرُوا

(١) السيرة الحلبية ٢/٢٩٧.

(٢) زاد المعاد ٢/١١٩، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٩٢، ٢٩٣.

عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا. وهاك صورة مصغرة منها:

١ - سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. نخرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمر، ماء لبني أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة.

٢ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. خرج ابن مسلمة في عشرة رجال إلى القصة في ديار بني ثعلبة، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلوهم، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريماً.

٣ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة، في ربيع الآخر سنة ٦ هـ. وقبده بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بني ثعلبة مع الصبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم، وغنموا نعماً وشاء.

٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجموم، في ربيع الآخر سنة ٦ هـ. والجموم ماء لبني سليم في مر الظهران، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نعماً وشاء وأسرى، فلما قفل بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزينة نفسها وزوجها.

٥ - سرية زيد أيضاً إلى العيص، في جمادى الأولى سنة ٦ هـ، في سبعين ومائة راكب، وفيها أخذت أموال غير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ، وأفلت أبو العاص، فأقى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه، ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير، حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف. كما ثبت في الحديث الصحيح^(١) ردها بالنكاح الأول، لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه

(١) انظر سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى، كما أنه ليس بصحيح سنداً^(١). والعجب من يتمسكون بهذا الحديث الضعيف، فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح، ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان. وقد بسطنا الدلائل في تعليقنا على بلوغ المرام، وجنح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ من قبل أبي بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف.

٦ - سرية زيد أيضاً إلى الطرف أو الطرق، في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ. خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة، فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب من نعمهم عشرين بعيراً، وغاب أربع ليال.

٧ - سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى، في رجب سنة ٦ هـ. خرج زيد في اثني عشر رجلاً إلى وادي القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادي القرى، فقتلوا تسعة، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة^(٢).

٨ - سرية الخبط - تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية، قال جابر: بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وأدهنا منه، حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا له ذلك، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه^(٣).

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية.

(١) انظر الكلام على الحديثين في تحفة الأحوذى ١٩٥/٢، ١٩٦.

(٢) رحمة للعالمين ٢/٢٢٦، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور، وزاد المعاد ٢/١٢٠، ١٢١، ١٢٢، وحواشي تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨، ٢٩.

(٣) صحيح البخاري ٢/٦٢٥، ٦٢٦، صحيح مسلم ٢/١٤٥، ١٤٦.

غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيح (في شعبان سنة ٦ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف، من حيث الوجهة العسكرية، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس. ونسرد الغزوة أولاً، ثم نذكر تلك الوقائع.

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال^(١). وسببها. أنه بنغه ﷺ أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله، فبعث بريدة بن الحصيبي الأسلمي؛ لتحقيق الخبر، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع في الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أبا ذر، وقيل ثميلة بن عبدالله الليثي، وكان

(١) والدليل على ذلك ما ثبت في حديث الإفك من أن القضية كانت بعدما أنزل الحجاب، وآية الحجاب نزلت في شأن زينب، وزينب إذ ذاك كانت تحته، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت: أحمي سمعي وبصري. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، وأما ما وقع في حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عباد تنازعا في أصحاب الإفك، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بني قريظة، فالظاهر أن هذا وهم الراوي، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن عائشة، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسيد بن حضير، قال أبو محمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ١١٥/٢) والعجب من محمد الغزالي أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص ٢٢٣) مع أن كلامه في الهدى (١١٥/٢) يأبى عن ذلك.

الحارث بن ضرار قد وجه عيناً؛ ليأتيه بجبر الجيش الإسلامي، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيح - بالضم فالفتح مصغراً، اسم لواء من مياهم في ناحية قديد إلى الساحل - فتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عباد، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصره. وانهزم المشركون، وقتل من قتل، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو.

كذا قال أهل المغازي والسير، قال ابن القيم: وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح: أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون، وذكر الحديث^(١) انتهى.

وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ^(٢).

وأما الوقائع التي حدثت في هذه الغزوة؛ فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبدالله بن أبي وأصحابه؛ نرى أن نورد أولاً شيئاً من أفعالهم في المجتمع الإسلامي.

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق:

قدمنا مراراً أن عبدالله بن أبي كان يحقن على الإسلام والمسلمين، ولا سيما على رسول الله ﷺ حنقاً شديداً. لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخرز؛ ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام، فصر فهم عن ابن أبي، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلبه ملكه.

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام، وبعد أن

(١) وانظر صحيح البخاري كتاب العتق ١/٣٤٥، وانظر أيضاً فتح الباري ٧/٣٤١.

(٢) زاد المعاد ٢/١١٢، ١١٣، ابن هشام ٢/٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥.

تظاهر به . ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ؛ ليعود سعد بن عبادة ، فمر بمجلس فيه عبدالله بن أبي ، فحمر ابن أبي أنفه وقال : لاتغيروا علينا . ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن ، قال : اجلس في بيتك ، ولا تغشنا في مجلسنا (١) .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر ، لم يزل إلا عدواً لله ورسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي ، وتوهين كلمة الإسلام ، وكان يوالي أعداءه ، وقد تدخل في أمر بني قينقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين ، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقيم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة ، فيقول : هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه ، وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب ، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس أي عدوا لله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجزا أن قمت أشدد أمره ، فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ ، قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي (٢) .

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين ، حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من : إثارة القلق والاضطراب ، وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ إلى قوله ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يدودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبيائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ .

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيداً أن

(١) ابن هشام ١/٥٨٤ ، ٥٨٧ . صحيح البخاري ٢/٩٢٤ ، وصحيح مسلم ٢/٩٠٢ .

(٢) ابن هشام ٢/١٠٥ .

سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي، وكثرة السلاح والجيوش والعدد؛ وإنما السبب هي القيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ، الذي هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم.

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حرباً دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية. ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين. تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم ابن أبي.

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية بعد غزوة الأحزاب، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأمة المؤمنين زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلي، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذي تبناه، فلما تزوج النبي ﷺ بزينب وجد المنافقون ثلمتين - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ.

الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة، فكيف صح له هذا الزواج؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه - متبناه - فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب - وأكثرها من الدعاية في هذا السبيل، واختلقوا قصصاً وأساطير، قالوا: إن محمداً رآها بغته، فتأثر بحسنها فشغفه حباً، وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد، وقد نشرها هذه الدعاية المختلقة نشرأ بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البيّنات، فيها شفاء لما في الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً﴾ [٣٣: ١].

وهذه إشارات عابرة، وصورة مصغرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بني المصطلق، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان عامة المسلمين

يحترزون عن شرهم، أو يتحملونه بالصبر، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى، حسب قوله تعالى: ﴿أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَنْبُؤُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [١٢٦: ٩].

دور المنافقين في غزوة بني مصطلق:

ولما كانت غزوة بني المصطلق، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا، وَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ فقد وجدوا متنفسين لتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ، وهاك بعض التفصيل عنها.

١ - قول المنافقين: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»:

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيماً على المريسيع، ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجبر يقال له جهجاه الغفاري، فازدحم هو وسان بن وبر الجهني على الماء، فاققتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة. وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه، فيهم زيد ابن أرقم غلام حدث - وقال: أو قد فعلوها، قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر، فقال عمر: مر عباد بن بشر فليقتله. فقال: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحياه، وقال: لقد رحمت في ساعة منكرة؟ فقال له: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ يريد ابن أبي، فقال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله، تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكاً.

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نياماً. فعل ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث.

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ، وحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، فصدقه، قال زيد: فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي، فأنزل الله ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ إلى ﴿لِيُخْرِجَنَ الْأَعْزَ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾، فأرسل إليّ رسول الله ﷺ فقرأها عليّ، ثم قال: إن الله قد صدقك (١).

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبدالله بن عبدالله بن أبي - رجلاً صالحاً من الصحابة الأخيار، فتراها من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبي قال له: والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبي ﷺ أذن له، فحلى سبيله، وكان قد قال عبدالله بن عبدالله بن أبي: يا رسول الله إن أردت قتله فمروني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه (٢).

٢ - حديث الإفك:

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمس في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان ينقلها، وأيضاً فإن نفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حمله واحداً أو اثنين لم يخف عليها الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، والله

(١) انظر صحيح البخاري ٤٩٩/١، ٧٢٧/٢، ٧٢٨، ٧٢٩، وابن هشام ٢/٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) نفس المصدر الأخير، ومختصر السيرة للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٧٧.

غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عينها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ ؟ - وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، ففقرها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهرية، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي مننفساً، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه، ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه - لما استلبت الوحي طويلاً - في فراقها، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها، تلويحاً لا تصريحاً، وأشار عليه أسامة وغيره بإمسакها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء؛ فقام على المنبر يستنذر من عبدالله بن أبي، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت سعد بن عبادة - سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي - الحمية القبلية، فجرى بينها كلام تثار له الحيان، فحفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت.

أما عائشة؛ فلما رجعت مرضت شهراً، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئاً، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي، فلما نقيت خرجت مع أم مسطح إلى البراز ليلاً، فعثرت أم مسطح في مرطها، فدعت على ابنها، فاستكرت ذلك عائشة منها، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ؛ لتأتي أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتمتها بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت تبكي، فبكت ليلتين ويوماً، لم تكن تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظنت أن البكاء فاتق كبدها، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك، فتشهد وقال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

وحينئذ قلص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم

بأمر - والله يعلم إني منه بريئة - لتصدقني والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف .
قال: ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله ﷺ وهو
يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة، أما الله فقد برأك، فقالت لها أمها:
قومي إليه.. فقالت عائشة - إدلالاً ببراءة ساحتها، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ - :
والله لا أقوم إليه، ولا أحد إلا الله .

والذي أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى: ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة
منكم ﴾ . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحنينة بنت جحش،
جلدوا ثمانين، ولم يحد الخبيث عبدالله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك، والذي تولى
كبره، إما لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، وإما
للمصلحة التي ترك لأجلها قتله (١) .

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك الإرتياب والقلق والاضطراب عن جو
المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضحاً لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك، قال ابن
إسحاق: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه
ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ لعمر: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت
لي اقتله لأرعدت له أنف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر: قد والله علمت لأمر
رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري (٢) .

(١) صحيح البخاري ١/٣٦٤، ٢/٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، زاد المعاد ٢/١١٣، ١١٤، ١١٥، وابن هشام

٢/٢٩٧ إلى ٣٠٧ .

(٢) ابن هشام ٢/٢٩٣ .

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع

١ - سرية عبدالرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدومة الجندل، في شعبان سنة ٦ هـ. أقعده رسول الله ﷺ بين يديه، وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب، وقال له: إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم، فمكث عبدالرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبدالرحمن تماضر بنت الأصبع، وهي أم أبي سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

٢ - سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفسك، في شعبان سنة ٦ هـ. وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعاً يريدون أن يمدوا اليهود، فبعث إليهم علياً في مائتي رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عيناً لهم، فأقر أنهم بعثوه إلى خير يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خبير، ودل العين على موضع تجمع بني سعد، فأغار عليهم علي، فأخذ خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن، وكان رئيسهم وبر بن عليم.

٣ - سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى، في رمضان سنة ٦ هـ. كان بطن فزارة يريد اغتيال النبي ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق قال سلمة بن الأكوع: وخرجت معه، حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة، فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل، ورأيت طائفة وفيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فيهم امرأة هي أم قرفة عليها قشع من أديم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوباً، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة، فبعث بها إلى مكة، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك^(١).

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ، وجهزت ثلاثين فارساً من أهل بينها لذلك، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون.

(١) انظر صحيح مسلم ٨٩/٢ ويقال: إن هذه السرية كانت سنة سبع.

٤ - سرية كرز بن جابر الفهري^(١) إلى العرنيين، في شوال سنة ٦ هـ وذلك أن رهطاً من عكل وعرينة أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فاستوخوها، فبعثهم رسول الله ﷺ في ذود في المرعى، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم، فبعث في طلبهم كرز الفهري في عشرين من الصحابة، ودعا على العرنيين: اللهم اعم عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيقت من مسك، فعمى الله عليهم السبيل، فأدر كوا، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسملت أعينهم، جزاء وقصاصاً بما فعلوا، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا^(٢) وحدثهم في الصحيح عن أنس^(٣).

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة، في شوال سنة ٦ هـ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان، لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال، لا هذا، ولا ذاك، ويذكرون أن عمراً قتل في الطريق ثلاثة رجال، ويقولون إن عمراً أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا السفر، والمعروف أن خبيباً استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤ هـ، فلا أدري هل اختلط السفيران على أهل السير، أو كان الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة، وقد أنكر العلامة المنصور فوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة. والله أعلم.

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبني قريظة، لم يجر في واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد. ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية.

(١) هذا هو الذي كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر في غزوة صفوان ثم أسلم وقتل شهيداً يوم فتح مكة.

(٢) راد المعاد ٢/١٢٢.

(٣) صحيح البخاري ٢/٦٠٢.

وقعة الحديبية (في ذي القعدة سنة ٦ هـ)

سبب عمرة الحديبية:

ولما تقدم التطور في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام.

أرّى رسول الله ﷺ في المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر.

استنفار المسلمين:

واستنفر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه، فأبطل كثير من الأعراب، وغسل ثيابه، وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثي، وخرج منها يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ٦ هـ، ومعه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة، ويقال ألف وخمسمائة، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سرح المسافر، السيوف في القرب.

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك في اتجاه مكة، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه، فقال: إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جوعاً وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت. واستشار النبي ﷺ

أصحابه وقال: أترون غميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبيهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزوتين، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: فروحوا، فراحوا.

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت:

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبي ﷺ عقدت مجلساً استشارياً، قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش، نقل إليه رجل من بني كعب أن قريشاً نازلة بذي طوى، وأن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم، في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة. وقد حاول خالد صد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يترأى الجيشان، ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم في صلاة العصر - ميلاً واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففانت الفرصة خالداً.

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي:

وأخذ رسول الله ﷺ طريقاً وعرأ بين شعاب، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهري الحمش، في طريق على ثنية المرار مهبط الحديدية من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسي الذي يفضي إلى الحرم ماراً بالتنعيم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد قرة الجيش الإسلامي قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديدية، على ثمذ (١) قليل الماء، إنما يتبرضه (٢) الناس تبرضاً، فلم يلبث أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا.

(٢) يتبرض: يأخذ منه القليل.

(١) ثمذ: حوض.

بدليل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بدليل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة^(١) نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل^(٢)، وهم مقاتلون وصادوك عن ابنت. قال رسول الله ﷺ: إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جوا، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره.

قال بدليل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً: إني قد جئكم من عند هذا الرجل، وسمعتة يقول قولاً، فإن شتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء. وقال ذو الرأي منهم هات ما سمعتة. قال: سمعتة يقول كذا وكذا، فبعثت قريش مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هذا رجل غادر، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبدليل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم.

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحليس بن علقمة - : دعوني آتة. فقالوا: آتة فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها، فابعثوها له، واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك. قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه.

فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آتة فقالوا: آتة، فاتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبدليل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد، أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها، وأرى أوباشاً من الناس خلقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: أمصص بظر اللات، أنحن نفر عنه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي

(١) عيبة نصح الرجل: موضع سره.

(٢) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن، والعوذ: الإبل حديثة النجاج، والمطافيل: التي معها أولادها.

لم أجرك بها لأجبتك. وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخرج يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه وقال: من ذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر، أو لست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلوست منه في شيء (وكان المغيرة ابن أخي عروة).

ثم إن عروة جعل يمرق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به، فرجع إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

هو الذي كف أيديهم عنكم:

ولما رأى شباب قريش الطائشون، والطامحون إلى حرب، رغبة زعمائهم في الصلح، فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويجدثوا أحداثاً تشعل نار الحرب، وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلاً فهبطوا من جبل التَّنيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن سلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعاً. ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبي ﷺ وعفا عنهم، وفي ذلك أنزل الله ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفرم عليهم﴾ [٤٨: ٢٤].

عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش:

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيراً يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم، فاعتذر قائلاً: يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعاه، وأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما

جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام. وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفي فيها أحد بالإيمان.

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ كذا وكذا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد ابن العاص، فرحب به ثم أسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش. فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، لكنه رفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن، ويرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الإحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغت تلك الإشاعة: لا نبرح حتى نأجز القوم، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، في أول الناس ووسطهم وآخرهم، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: هذه عن عثمان، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وكان عمر آخذاً بيده، ومعقل بن يسار آخذاً بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ الآية [٤٨: ١٨].

إبرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش حراجة الموقف، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أذ يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال: قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فجاء سهيل فتكلم طويلاً، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي هذه:

١ - الرسول - ﷺ - يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً ، معهم سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض .

٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق ، فأبي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق .

٤ - من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه - أي هارباً منهم - رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد - أي هارباً منه - لم يرد عليه .

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب ، فأملى عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم . فأمر النبي ﷺ علياً بذلك . ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك . ولكن أكتب محمد بن عبد الله فقال : إني رسول الله وإن كذبتموني ، وأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله ، ويمحو لفظ رسول الله ، فأبى علي أن يمحو هذا اللفظ ، فمحاها ﷺ بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ - وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا في أوائل المقالة ، فكان دخولهم في هذا العهد ؛ تأكيداً لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

رد أبي جندل :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه علي أن ترده . فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال : فوالله إذا لا أقاضيك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ فأجزه لي . قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : بل فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه ، وأخذ بتلابيه وجره ؛ ليرده إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل

لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيتناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أب جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

النحر والحلق للحل عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال: قوموا، فانحروا، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جلاً كان لأبي جهل، وكان في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً بالمغفرة وللمقصرين مرة. وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام، أو الصدقة، أو النسك في شأن كعب بن عجرة.

الإباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهن بالعهد الذي تم في الحديبية، فرفض طلبهم هذا، بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي: (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا) ^(١) فلم تدخل النساء في العقد رأساً. وأنزل في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ حتى بلغ ﴿بعصم الكوافر﴾، فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى ﴿إذا جاءك المؤمنات يبأعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾ إلخ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتك. ثم لم يكن يردهن.

(١) صحيح البخاري ١/٣٨٠.

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. تزوج بإحداها معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة:

هذه هي هدنة الحديبية، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية، وبين الناس، بصفقتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب، وبمجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشاً نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلا يهم ذلك قريشاً، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى قريش؟ وفتحاً مبيناً بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة؛ صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني؛ فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: ﴿وهم بدأواكم أول مرة﴾، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها، وصددها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانتهياره.

أما البند الأول؛ فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضاً فشل لقريش، وليس فيه ما يشفي قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جداً، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله (١) وأما من أسلم من أهل مكة - فهو وإن لم يبق للجوئته إلى المدينة سبيل - لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» (٢).

والأخذ بمثل هذا الإحتفاظ، وإن كان مظهر الإعتزاز لقريش، لكنه في الحقيقة ينبيء عن شدة انزعاج قريش وهلمهم وخورهم، وعن شدة خوفهم على كياناتهم الوثني، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كياناتهم اليوم على شفا جرف هار، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الإحتفاظ. وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الإعتاد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط.

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ :

هذه هي حقيقة بنود هذه الهدنة، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد، الأولى؛ أنه كان قد أخبرهم أن سنأتي البيت فنطوف به، فهاله يرجع ولم يطف به؟ الثانية؛ أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق، والله وعد إظهار دينه، فهاله قبل ضغط قريش، وأعطى الدنية في الصلح؟ كانت هاتان الظاهرتان مشار الريب والشكوك والوساوس والظنون. وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح. ولعل أعظمهم حزناً كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما

(٢) نفس المصدر.

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ١٠٥/٢.

يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، ولن يضيعني أبداً. قال: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به.

ثم انطلق عمر متغيظاً فأتى أبا بكر، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بفرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم نزلت ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال نعم. طابت نفسه ورجع.

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً^(١).

اخلت أزمة المسعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأطمان بها، انفلت رجل من المسلمين، ممن كان يعذب في مكة، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت لنا، فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الخليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً. فاستله الآخر، فقال: أجل. والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى يبرد.

وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير وقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال رسول الله: ويل أمه، مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والهدنة، فتح الباري ٤٣٩/٧ إلى ٤٥٨، صحيح البخاري ١/٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٥٩٨/٢، ٧١٧، ٦٠٠، صحيح مسلم ١٤٠/٢، ١٠٥، ١٠٦، ابن هشام ٢/٣٠٨ إلى ٣٢٢، زاد المعاد ٢/١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٢٠٧ إلى ٣٠٥، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٩، ٤٠.

إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وبنقلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعتراضوا لها، فقتلواهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فقدموا عليه المدينة (١).

إسلام أبطال من قريش:

وفي أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال: إن مكة قد ألفت إلينا أفلاذ كبدها (٢).

(١) المصادر السابقة.

(٢) اختلفوا كثيراً في تعيين السنة التي أسلم فيها هؤلاء الصحابة، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشي معروفة، وأسلم خالد وطلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقبها في الطريق، وحضر الثلاثة عند النبي ﷺ وأسلموا وهذا يقتضي أنهم أسلموا في أوائل سنة سبع. والله أعلم.

المرحلة الثانية طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام، والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها في عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرة العرب؛ انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازاً كبيراً بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء إنما جاء من قبل إغراء اليهود. أما اليهود فقد كانوا جعلوا خبير بعد جلائهم عن يثرب وكرراً لللدس والتآمر، كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

ولكن هذه المرحلة التي بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال، برز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري. ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة على قسمين:

١ - النشاط في مجال الدعوة، أو مكاتبة الملوك والأمراء.

٢ - النشاط العسكري.

وقبل أن نتابع النشاط العسكري في هذه المرحلة، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء، إذ الدعوة الإسلامية هي المقدم طبعاً، بل ذلك هو الهدف الذي عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام، والحروب والفتن، والقلقل والإضطرابات.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة، نقشه: محمد رسول الله، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، رسول سطر، والله سطر، هكذا: محمد رسول الله^(١).

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وقد جزم العلامة المنصور فوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام^(٢). وفيما يلي نصوص هذه الكتب، وبعض ما تمخضت عنه.

الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة:

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبيجر، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري في آخر سنة ست أو في المحرم سنة سبع من الهجرة. وقد ذكر الطبري نص الكتاب، ولكن النظر الدقيق في ذلك النص، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد الحديبية، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة في العهد المكي، فقد ورد في آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرأ ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر).

وروى البيهقي عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا: هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا لداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله فأسلم تسلماً،

(١) صحيح البخاري ٨٧٢/٢، ٨٧٣.

(٢) رحمة للعالمين ١٧١/١.

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه في الماضي القريب - كما أورده ابن القيم مع الإختلاف في كلمة فقط - وبذل الدكتور في تحقيق ذلك النص جهداً بليغاً واستعان في ذلك كثيراً باكتشافات العصر الحديث، وأورد صورته في الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته. ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصيئة فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ﷺ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى^(١).

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديبية، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه، والذي أورده البيهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي كتبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية، فإن فيه الآية الكريمة: ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ إلخ كما كان دأبه في تلك الكتب، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحاً، وأما النص الذي أورده الدكتور حميد الله، فالأغلب عندي أنه نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته، ولعل هذا هو السبب في ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندي عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤيدها

(١) انظر رسول أكرم كي سياسي زندكي (بالأردو) ص ١٠٨، ١٠٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، وفي زاد المعاد: أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهدى. انظر زاد المعاد ٦٠/٣.

نصوص هذه الكتب. والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذي أورده السيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحابه إلى خليفته مع أن اسم أصحابه وارد في هذا النص صريحاً والعلم عند الله (١).

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي، ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب. وكتب إلى النبي ﷺ بذلك، وهاك نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحابه سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء، والأرض، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروفاً، أنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت بها إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين (٢).

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرأً ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخير (٣). توفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب. ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه انبي ﷺ كتاباً آخر ولا يدري هل أسلم أم لا (٤) ؟

٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر :

وكتب النبي ﷺ إلى جريج بن متي (٥)، الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية :
بسم الله الرحمن الرحيم « من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على

(١) انظر هذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله «رسول أكرم كمي سياسي زندكي» ص ١٠٨، إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١.

(٢) زاد المعاد ٦١/٣.

(٣) ابن هشام ٣٥٩/٢.

(٤) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٩٩/٢.

(٥) هذا على رأي العلامة المنصور فوري في كتابه رحمة للعالمين ١/١٧٨، وقال الدكتور حميد الله «إن اسمه بنيامين» انظر : رسول أكرم كمي سياسي زندكي ص ١٤١.

من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجره مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط. ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾^(١).

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بغيرك بك. فقال المقوقس: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حق من عاج، وختم عليه ودفع به إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

« بسم الله الرحمن الرحيم » لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك.

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة ولدل بقيت إلى زمن

(١) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٦١/٣ والذي أورده الدكتور حميد الله أخذاً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص، ففيه « فأسلم تسلم يؤتك الله الخ. وفيه « إثم القبط، بدل قوله « إثم أهل القبط، انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكي ص ١٣٦، ١٣٧.

معاوية^(١)، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاهما لحسان بن ثابت الأنصاري.

٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

واختار لحمل هذا الكتاب عبدالله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولا ندري هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجاله، أم بعث عبدالله السهمي، وأياً ما كان فلما قرىء الكتاب على كسرى مزقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: مزق الله ملكه، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين عندك جلدتين، فليأتياي به. فاختار باذان رجلين ممن عنده، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتنتقل معي، وقال قولاً تهديدياً، فأمرها النبي ﷺ أن يلاقياه غداً.

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع^(٢)، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما غدوا عليه أخبرها بذلك: فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر. وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء، فخرجنا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر،

(١) زاد المعاد ٣/٦١.

(٢) فتح الباري ٨/١٢٧.

وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري.
وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن^(١).

٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتلك الله أجره مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون^(٢).

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء^(٣)، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً، فقال: ادنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبتني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي كذباً لكذبت عنه.

ثم قال: أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب،

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٤٧/١، فتح الباري ١٣٧/٨، ١٣٨ وانظر رحمة للعالمين أيضاً ج.

(٢) صحيح البخاري ٤/١، ٥.

(٣) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيلياء - بيت المقدس - من حصص، شكراً لما من الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٩٩/٢)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز، وصالحوا الروم على استسلام جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر، وردوا إليه الصليب الذي تزعم النصراني أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أي سنة ٧هـ) يضع الصليب في موضعه، ويشكر الله على هذا الفتح المبين.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه. قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قل: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتهم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشرکوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قل أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشرکوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللفظ، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابه حين أخرجنا، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام^(١).

(١) صحيح البخاري ٤/١، صحيح مسلم ٢/٩٧، ٩٨، ٩٩.

هذا ما رآه أبو سنيان من أثر هذا الكتاب على قيصر ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة بن الكلبي ، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة ، ولما كان دحية مجسماً في الطريق لقيه ناس من جذام ، ففقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئاً ، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهي وراء وادي القرى في خمسمائة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، واستاق نعمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسبي مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادة ، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق ، فقبل النبي ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسبي .

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديدية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديدية . ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديدية بلا شك (١) .

٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوي :

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله ، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود ، فأحدث إلي في ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ،

(١) انظر زاد المعاد ١٢٢/٢ ، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٩ .

فأقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية» (١).

٦ - الكتاب إلى هودّة بن علي صاحب اليمامة:

وكتب النبي ﷺ إلى هودّة بن علي صاحب اليمامة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هودّة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامري، فلما قدم سليط على هودّة بهذا الكتاب محتوماً أنزله، وحياه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فأجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هودّة مات، فقال النبي ﷺ: أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبي، يقتل بعدي، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال: أنت وأصحابك، فكان كذلك (٢).

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق:

كتب إليه النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك».

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمه، ولما أبلغه الكتاب قال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه، ولم يسلم (٣).

(١) زاد المعاد ٦١/٣، ٦٢، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخذاً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف في كلمة واحدة، ففيه «لا إله غيره» بدل قوله: «لا إله إلا هو».

(٢) زاد المعاد ٦٣/٣.

(٣) نفس المصدر ٦٢/٣، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٤٦/١.

٨ - الكتاب إلى ملك عمان :

وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكما أن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً - فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم علي بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رايه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : وكيف صنع قومه بملكه . فقلت أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان اتبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في الخصل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت ، وما نستحلّه في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلى ، قال : فبأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ ، قال : لا والله لو سألتني درهماً واحداً ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ، ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال : أنظر ما تقول يا عمرو ؟ قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت :

إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه. فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل. قال: يا عمرو، وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا. قال: فمكثت ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فأرسلت، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بججتك، فدفعت إليه الكتاب محتوماً، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقراه مثل قراءته، إلا أنني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرني عن قریش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته تبطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك أخيل والرجال قال: دعني يومي هذا، وارجع إلي غداً.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إني لأرجو أن يسلم إن لم يرضن بملكه. حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت: أنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما ظهر عنيه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلي، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا النبي ﷺ، وخلياً بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني^(١).

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيراً عن كتب بقية الملوك، والأغلب أنه كان بعد الفتح.

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض. فمنهم من آمن به ومنهم من كفر. ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

(١) زاد المعاد ٣/٦٢، ٦٣.

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاء رسول الله ﷺ .

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل خيبر. ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث، وروى ذلك مسلم مسنداً من حديث سلمة بن الأكوع. وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي (١).

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح، وأنا معه بفرس أبي طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ. ثم نمت على أكمة، واستقبلت المدينة، فنادت ثلاثاً: يا صباحاه، ثم خرجت في اثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلي فارس جلست في أصل الشجرة، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا في تضايق الجبل علوته، فجعلت أرميهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلصوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين ربحاً يستخفون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه. حتى أتوا متضايقاً من ثنية فجلسوا يتغدون، وجلست على

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة ذات قرد ٦٠٣/٢، وصحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها

١١٣/٢، ١١٤، ١١٥، وفتح الباري ٧/٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، زاد المعاد ٢/١٢٠.

رأس قرن، فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، قلت: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا. فما برحت مكاني حين رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر. فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبدالرحمن وأخرم، فعقر بعد الرحمن فرسه، وطعنه عبدالرحمن فقتله، وتحول على فرسه ولحق قتادة بعد الرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، نتبعهم، أعدو على رجلي، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجلبتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقني رسول الله ﷺ والخيل عشاء، فقلت: يا رسول الله إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرج، وأخذت بأعناق القوم، فقال: يا ابن الأكوع. ملكت فأسجج^(١)، ثم قال: إنهم ليقرون الآن في غطفان.

وقال رسول الله ﷺ: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة. وأعطاني سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة. استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو^(٢).

(١) أسجج: أي سهل والمعنى قدرت فاعف.

(٢) انظر المصدرين السابقين، وزاد المعاد ٢/١٢٠.

(غزوة خيبر ووادي القرى) (في المحرم سنة ٧ هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوخامة .

سبب الغزوة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وأمن منه أمناً باتاً بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفتات المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك. وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعد منهم - وهي قريش - كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر.

قال المفسرون: إن خيبر كانت وعداً وعدها الله تعالى بقوله: ﴿وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه﴾ [٤٨: ٢٠] يعني صلح الحديبية، وبالغنائم الكثيرة خيبر.

عدد الجيش الإسلامي:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً: ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا تتبعكم، يريدون أن يبدلوا كلام الله، قل لن تتبعونا، كذلك قال الله من قبل، فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ [٤٨: ١٥].

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة. واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وقال ابن إسحاق: نائلة بن عبدالله الميبي، والأول أصح عند المحققين^(١).

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلماً، فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعاً فزوده، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهامهم.

اتصال المنافقين باليهود:

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبدالله بن أبي إلى يهود خيبر: أن محمداً قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان. يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين. وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين.

(١) انظر فتح الباري ٧/٤٦٥، زاد المعاد ٢/١٣٣.

الطريق إلى خيبر :

وسلك رسول الله ﷺ في اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء، ثم نزل على واد يقال له الرجيع، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر، لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطرق سمعوا من خلفهم حساً ولغظاً، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأمواهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما حسيل - ليدلاه على الطريق الأحسن، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أي جهة الشام - فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان. قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله - ﷺ -، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال: يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسميها له واحداً واحداً. قال: اسم واحد منها حزن فأبى النبي ﷺ من سلوكه، وقال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضاً وقال: اسم آخر حاطب. فامتنع منه أيضاً، وقال حسيل: فما بقي إلا واحداً قال عمر: ما اسمه قال: مرحب، فاختر النبي ﷺ سلوكه.

بعض ما وقع في الطريق :

١ - عن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال، رجل من القوم لعامر: يا عامر الا تسمعنا من هنيهاتك؟ - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم. يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينه علينا إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصباح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: يرحمه الله. قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به. (١)

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢، صحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢.

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد^(١)، وقد وقع في حرب خيبر .

٢- وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير « الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ: أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً^(٢).

٣- وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى، فأكل وأكل الناس، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمض الناس. ثم صلى ولم يتوضأ^(٣)، ثم صلى العشاء^(٤).

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، وكان النبي ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والخميس، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين^(٥).

وكان النبي ﷺ اختار لمعسكره منزلاً، فأتاه حباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأي في الحرب؟ قال بل هو الرأي، فقال: يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا. وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضاً هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذة معسكراً. قال ﷺ: الرأي ما أشرت، ثم تحول إلى مكان آخر.

ولمادنا من خيبر وأشرف عليها قال: قفوا. فوقف الجيش فقال: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما

(١) نفس المصدر الأخير.

(٢) صحيح البخاري ٦٠٥/٢.

(٣) نفس المصدر ٦٠٣/٢.

(٤) مغازي الواقدي (غزوة خيبر ص ١١٢).

(٥) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢، ٦٠٤.

أضلّلن ، فإننا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله (١).

التهبؤ للقتال وحصون خيبر :

ولما كانت ليلة الدخول قال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدواً على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين علي بن أبي طالب ، فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه (٢) . قال : فأرسلوا إليه . فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم (٣).

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ - حصن ناعم

٢ - حصن الصعب بن معاذ .

٣ - حصن قلعة الزبير

٤ - حصن أبي .

٥ - حصن النزار .

والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطاة) ، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثاني ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

١ - حصن القموص (كان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير) .

٢ - حصن الوطيح .

٣ - حصن السلام .

(١) ابن هشام ٣٢٩/٢ .

(٢) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف في أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

(٣) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٥٠٥/٢ ، ٦٠٦ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلي كان بعد فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهم . والراجع عند المحققين هو ما ذكرنا .

وفي خيبر حصون وقلاع غير هذه الثانية، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها.

والقتال المرير إنما دار في الشطر الأول منها، أما الشطر الثاني فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال.

بدء المعركة وفتح حصن ناعم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الإستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يعد بالألف.

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة. قال سلمة بن الأكوع: فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عمي عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، فيرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبي ﷺ: إن له لأجرين وجمع بين إصبعيه، إنه لجاهد مجاهد قل عربي مشى بها مثله^(١).

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى، وجعل يرتجز بقوله:

قد علمت خيبر أني مرحب ... إلخ

فبرز له علي بن أبي طالب. قال سلمة بن الأكوع: فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدر كليث غابات كريبه المنظره

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ١٢٢/٢، باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢، صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢.

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه (١).

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن، وقال: من أنت، فقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو، يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير؟ فقالت صفية أمه: يا رسول الله، يقتل ابني؟ قال: بل ابنك يقتله. فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أياماً لاقي المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يتسوا من مقاومة المسلمين، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

وروى ابن إسحاق: أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء، فقال: اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً وودكاً. فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخير حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه (٢).

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقادير في المهاجمة، ودار البراز والقتال أمام الحصن. ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات.

(١) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحباً، وفي اليوم الذي قتل فيه، وفتح هذا الحصن. وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضاً، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخاري.

(٢) ابن هشام ملخصاً ٣٣٣/٢ والنودك: دسم اللحم.

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق كان رجال من اجيش قد ذبحوا الحمير، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمير الإنسية.

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع في رأس قلة، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار، وأقام محاصراً ثلاثة أيام. فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا، إن لهم شرباً وعيوناً تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عيهم أصحروا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.

فتح قلعة أبي:

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلها أبطال المسلمين، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خريشة الأنصاري صاحب العصاة الحمراء، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام الفلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامي، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن في الشطر الأول.

فتح حصن النزار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء، بينما كانوا قد أدخلوا منها القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن، للإشتباك مع قوات المسلمين، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبالقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير في داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فروا - من فروا - من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراتهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهي ناحية النطاة والشق، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أدخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خيبر.

فتح الشطر الثاني من خيبر:

ولما فتح ناحية النطاة والشق، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلام حصن أبي الحقيق من بني النضير، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق، وتحصن هؤلاء أشد التحصن.

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا فسيق ابن إسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص. بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضة للاستسلام^(١). أما الواقدي، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال. وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال.

ومها كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة - فرض على أهلها أشد الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يوماً، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح.

المفاوضة:

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: انزل فأكلمك؟ قال: نعم فنزل، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من

(١) ابن هشام ٢/٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٧.

خير وأرضها بذرارهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان^(١)، فقال رسول الله ﷺ: وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتموني شيئاً، فصاحوه على ذلك^(٢). وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالا كثيراً، غيبا مسكا فيه مال وحلي حيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فوجد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة: رأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم! فأمر بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بني، فأبى أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير، وقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الربير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن سلمة، فضرب عنقه بمحمود بن سلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحي، وهو يستظل بالجدار فمات).

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبي الحقيق، وكان الذي اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة.

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول.

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلي اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا

(١) ولكن صرح في رواية أبي داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر سنن أبي داود، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٢/٧٦).

(٢) زاد المعاد ٢/١٣٦.

لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها، فأعطاهم خبير على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم. وكان عبدالله بن رواحة يخرصه عليهم.

وقسم أرض خبير على ستة وثلاثين سهماً، وجمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، سهم لنوابه وما يتنزل به من أمور المسلمين، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفاً وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهان، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم، فصار للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد^(١).

ويدل على كثرة مغام خبير مارواه البخاري عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خبير، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خبير قلنا: الآن نشبع من التمر^(٢). ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخبير مال ونخيل^(٣).

قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرين:

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه.

قال أبو موسى: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه - أنا وأخوان لي - في بضع وخسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر وأصحابه عنده، فقال: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خبير، فأسهم لنا، وما قسم لأحد غاب عن فتح خبير شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم^(٤).

(١) زاد المعاد ١٣٧/٢، ١٣٨.

(٢) صحيح البخاري ٦٠٩/٢.

(٣) زاد المعاد ١٤٨/٢، صحيح مسلم ٩٦/٢.

(٤) صحيح البخاري ٤٤٣/١، وانظر أيضاً فتح الباري ٧/٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧.

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقبله ، وقال : والله ما أدري بأيها أفرح ؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر (١) .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك (٢) .

الزواج بصفية :

ذكرنا أن صفية جعلت في السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره ، ولما جمع السبي جاء دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : يا نبي الله ، أعطني جارية من السبي . فقال : اذهب فخذ جارية . فأخذ صفية بنت حيي ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة وبني النضير ، لا تصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها . فجاء بها ، فلما نظرا إليها النبي ﷺ قال : خذ جارية من السبي غيرها ، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروساً بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق ، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق يبني بها (٣) .

ورأى بوجهها خضرة ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط في حجري ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجي ، فلطم وجهي . فقال : تمنين هذا الملك الذي بالمدينة (٤) .

أمر الشاة المسمومة :

ولما أظأن رسول الله ﷺ بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، - امرأة سلام ابن مشكم - شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثر فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين

(١) زاد المعاد ١٣٩/٢ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٢٨/١ .

(٣) صحيح البخاري ١/٥٤ ، ٢/٦٠٤ ، ٦٠٦ ، زاد المعاد ١٣٧/٢ .

(٤) نفس المصدر الأخير ، وابن هشام ٢/٣٣٦ .

يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسفها، ولفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: قلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، فتجاوز عنها. وكان معه بشر بن البراء بن معرور، أخذ منها أكلة، فأساغها، فمات منها.

واختلفت الروايات في التجاوز عن المرأة وقتلها، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً، فلما مات بشر قتلها قصاصاً^(١).

قتل الفريقين في معارك خيبر:

وجلة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلاً، أربعة من قريش وواحد من أشجع، وواحد من أسلم، وواحد من أهل خيبر، والباقيون من الأنصار.

ويقال: إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ١٨ رجلاً. وذكر العلامة المنصور فوري ١٩ رجلاً، ثم قال: إني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسماً، واحد منها في الطبري فقط، وواحد عند الواقدي فقط، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة، وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر. والصحيح أنه قتل في بدر^(٢).

أما قتل اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً.

فدك:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب^(٣).

(١) انظر زاد المعاد ١٣٩/٢، ١٤٠، فتح الباري ٤٩٧/٧، وأصل القصة مروية في البخاري مطولاً

ومختصراً، ٤٤٩/١، ٦١٠/٢، ٨٦٠، وفي ابن هشام ٣٣٧/٢، ٣٣٨.

(٢) رحة للعالمين ٢/٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠.

(٣) ابن هشام ٣٣٧/٢، ٣٥٣.

وادي القرى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خير، انصرف إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة، فقتل مدعم عبداً لرسول الله ﷺ، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبي ﷺ: كلا. والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خير من المغام، لم تصبها المقاسم، لشتعل عليه ناراً. فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين، فقال النبي ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار^(١).

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عباد، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنم الله أموالهم، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقسم على أصحابه ما أصاب بها، ونزك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها^(٢) (كما عامل أهل خير).

تيما:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خير ثم فدك ووادي القرى لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح. فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم^(٣)، وكتب لهم بذلك كتاباً، وهاك نصه: هذا كتاب محمد رسول الله لبي عادي، إن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد، وكتب خالد بن سعيد^(٤).

(٣) نفس المصدر ١٤٧/٢.

(٤) ابن سعد.

(١) صحيح البخاري ٦٠٨/٢.

(٢) زاد المعاد ١٤٦/٢، ١٤٧.

العود إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة، وفي مرجعه ذلك سار ليلة، ثم نام في آخر الليل ببعض الطريق، وقال لبلال: اكلاً لنا الليل فغلبت بلالاً عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ أحد، حتى ضربتهم الشمس، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ، ثم خرج من ذلك الوادي، وتقدم، ثم صلى الفجر بالناس، وقيل: إن هذه القصة في غير هذا السفر^(١).

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة ٧ هـ.

سرية أبان بن سعيد

كان النبي ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تماماً بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعاً، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب، تحت قيادة أبان بن سعيد، بينما كان هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجباً عليه، فوافى النبي ﷺ بخيبر، وقد افتتحها.

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧ هـ. ورد ذكر هذه السرية في البخاري^(٢). قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية^(٣).

(١) ابن هشام ٣٤٠/٢، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث: وانظر زاد المعاد ١٤٧/٢.

(٢) انظر صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٨/٢، ٦٠٩.

(٣) فتح الباري ٤٩١/٧.

بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة غزوة ذات الرقاع

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة؛ تفرغ تماماً للالتفات إلى الجناح الثالث، أي إلى الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخضاعهم تماماً تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر، ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع.

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن مساهمة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما في هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧هـ.

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي ﷺ سمع باجتماع أنمار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم في أربعائة أو سبعمائة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة، ولقي جمعاً من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف.

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري،

فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا (١).

وفيه عن جابر: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العصابة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فمنا نومة؛ فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فهذا هو ذا جالس. ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ.

وفي رواية: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبي ﷺ أربع، وللقوم ركعتان (٢).

وفي رواية أبي عوانة: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فحلى سبيله. فجاء إلى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس (٣).

وفي رواية البخاري قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث (٤) قال ابن حجر: ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور، وأنه أسلم. لكن ظاهر كلامه أنها قصتان في غزوتين والله أعلم (٥).

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيثة (٦) للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عباداً وهو

(١) صحيح البخاري باب غزوة ذات الرقاع ٥٩٢/٢، وصحيح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ١١٨/٢.

(٢) صحيح البخاري ٥٩٣/٢، ٤٠٨، ٤٠٧/١.

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤، وانظر فتح الباري ٤١٦/٧.

(٤) صحيح البخاري ٥٩٣/٢.

(٥) فتح الباري ٤٢٨/٧.

(٦) ربيثة: الشخص المخصص للمراقبة.

قائم يصلي بسهم فنزعه، ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله، هلا نبهتني، فقال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها^(١).

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترى أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة، وتغزو حنيناً، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين.

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧هـ. وبعث في خلال ذلك عدة سرايا، وهاك بعض تفصيلها:

١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بقديد، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧هـ. كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر. فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا، وساقوا النعم، وطاردتهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين. ونجح المسلمون في بقية الانسحاب.

٢ - سرية حسمى في جمادى الثانية سنة ٧هـ، وقد مضى ذكرها في مكاتبة الملوك.

٣ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧هـ. ومعه ثلاثون رجلاً، كانوا يسرون الليل ويستخفون في النهار، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر إلى محالمهم، فلم يلق أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة.

٤ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧هـ، في

(١) زاد المعاد ١١٢/٢، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٣/٢، إلى ٢٠٩، زاد المعاد ١١٠/٢، ١١١، ١١٢، فتح الباري ٤١٧/٧ إلى ٤٢٨.

ثلاثين رجلاً. خرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل، فرمواهم بالنبل حتى فني نبل بشير وأصحابه، فقتلوا جميعاً إلا بشير فإنه ارتث إلى فداك، فأقام عند يهود، حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.

٥ - سرية غالب بن عبدالله الليثي في رمضان سنة ٧هـ إلى بني عوال، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، وقيل إلى الحرقات من جحفية في مائة وثلاثين رجلاً، فهجموا عليهم جميعاً، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاء، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد مرداس بن نهيك بعد أن قال: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: هلا شقت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟

٦ - سرية عبدالله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧هـ في ثلاثين راکباً. وذلك أن أسيراً أو بشيراً بن زرام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين، فأخرجوا أسيراً في ثلاثين من أصحابه، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين.

٧ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالفتح، أرض لغطفان وقيل لفزارة وعدرة) في شوال سنة ٧هـ في ثلاثمائة من المسلمين، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة. فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب بشير نعماً كثيرة، وأسر رجلين، فقدم بهما إلى المدينة، إلى رسول الله ﷺ، فأسلما.

٨ - سرية أبي حدرد الأسلمي إلى الغابة. ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء، وملخصها أن رجلاً من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين. فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين فاختر أبو حدرد خطة حربية حكيمة، وهزم العدو هزيمة منكرة، واستاق الكثير من الإبل والغنم^(١).

(١) زاد المعاد ١٤٩/٢، ١٥٠، وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، زاد المعاد ١٤٨/٢، ١٤٩، ١٥٠، تلقح فهوم أهل الأثر مع حواشها ص ٣١ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤.

عمرة القضاء

قال الحاکم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان. أهـ^(١).

واستخلف على المدينة عوف بن رهم الغفاري، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، وأحرم للعمرة من ذي الحليفة، ولبي، ولبي المسلمون معه، وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها، الحجف، والمجان، والنبل، والرماح، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب^(٢).

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكباً على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحو السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون.

وخرج المشركون إلى جبل قميقان - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حتى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرسلوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين. ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرسلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء، وإنما أمرهم بذلك ليري المشركين قوته^(٣)، كما أمرهم بالاضطباع، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنة، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف:

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله

(١) فتح الباري ٧/٧٠٠.

(٢) نفس المصدر وزاد المعاد ٢/١٥١.

(٣) صحيح البخاري ١/٢١٨، ٢/٦١٠، ٦١١، صحيح مسلم ١/٤١٢.

قد أنزل الرحمن في تنزيله في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقليله إني رأيت الحق في قبوله
بأن خير القتل في سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن نصيله ويذهل الخليل عن خليله (٢)

وفي حديث أنس فقال عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل (٣).
ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا (٤).

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي، وقد وقف الهدي عند المروة، قال: هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر. فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناساً إلى يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقفون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً، فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا، فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، ونزل بسرف فأقام بها.
ولما أراد الخروج من مكة تبعته ابنة حمزة، تنادى، يا عم يا عم، فتناولها علي، واختصم فيها علي وجعفر وزيد، ففضى النبي ﷺ لجعفر، لأن خالتها كانت تحته.

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبنى بها بسرف (١).

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها في الروايات فجمعنا بين شتيها.

(٢) رواه الترمذي، أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر ١٠٧/٢.

(٣) صحيح مسلم ٤١٢/١.

(٤) زاد المعاد ١٥٢/٢.

المحققون^(١) وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح^(٢).

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا، هاك تفصيلها:

١ - سرية ابن أبي العوجاء، في ذي الحجة سنة ٧ هـ، في خمسين رجلاً بعثه رسول الله ﷺ إلى بني سليم، ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالاً شديداً، جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.

٢ - سرية غالب بن عبدالله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ٨ هـ. بعث في مائتي رجل، فأصابوا من العدو نعماً، وقتلوا منهم قتلى.

٣ - سرية ذات أطلح في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو قضاة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً، فلقوا العدو، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجل واحد، فقد ارتث من بين القتلى^(٣).

٤ - سرية ذات عرق إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلاً، فاستاقوا نعماً من العدو، ولم يلقوا كيداً^(٤).

(١) انظر زاد المعاد ١/١٧٢، فتح الباري ٧/٥٠٠.

(٢) انظر نفس المصدر الأخير.

(٣) رحمة للعالمين ٢/٢٣١.

(٤) نفس المصدر وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ص ٣٣ حاشية.

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلاد الشام النصراني، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م.

ومؤتة (بالضم فالسكون) هي قرية بأدنى بقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

سبب المعركة:

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل^(١)، وهو أكبر جيش إسلامي، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم:

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة^(٢). وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة^(٣). وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقتلوهم، وقال لهم: اغزوا بسم الله في سبيل الله من

(١) زاد المعاد ٢/١٥٥، فتح الباري ٧/٥١١.

(٢) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/٦١١.

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي، ص ٣٢٧.

كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغيروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناءً (١).

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبدالله بن رواحة:

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس، ودعوا أمراء رسول الله ﷺ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش، عبدالله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صباية بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [١٩ : ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبدالله بن رواحة.

لكنني أسأل الرحمن مغفرة
أو طعنة بيدي حران مجهزة
وضربة ذات فرع (٢) تقذف الزبدا
بجربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي (٣)
أرشده الله من غاز، وقد رشدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ مشياً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم (٤).

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغتته حالة رهيبة:

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لحم وجدام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف.

المجلس الاستشاري بمعان:

لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمزم، الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب،

(١) نفس المصدر، ورحمة للعالمين ٢/٢٧١.

(٢) الفرغ: السعة.

(٣) الجدث: القبر.

(٤) ابن هشام ٢/٢٧٣، ٣٧٤، زاد المعاد ٢/١٥٦، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٣٢٧.

على جيش كبير عرمرم، مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

ولكن عبدالله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجع الناس، قائلاً: يا قوم والله إن التي تكرمون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد، ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنا هي إحدى الحسينين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيراً استقر الرأي على ما دعا إليه عبدالله بن رواحة.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو:

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء لها «مشارف»، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري.

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجرات مائتي ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حب رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاوم حتى شاط في رماح القوم، وخر صريعاً.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فمقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعاً إياها حتى قتل. يقال: إن رومياً ضربه ضربة قطعته نصفين، وأثابه الله بمجناحيه جناحين في الجنة، يطير بها حيث يشاء، ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين.

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره. يعني ظهره (١).

وفي رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية (٢). وفي رواية العمري عن نافع زيادة « فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده » (٣).

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبدالله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه كارهة أو لتطاوعنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ما لي أراك تكرهين الجنه

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله:

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان - اسمه ثابت بن أرقم - فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية (٤). وفي لفظ آخر: لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية (٥).

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبراً بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من

(١) صحيح البخاري، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢.

(٢) نفس المصدر ٦١١/٢.

(٣) انظر فتح الباري ٥١٢/٧، وظاهر الحديثين التخالف في العدد، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام، انظر المصدر المذكور.

(٤) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢.

(٥) نفس المصدر ٦١١/٢.

ساحة القتال - : أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعينه تذر فان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم^(١).

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر العظيم من جيوش الروم، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً. ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية، تلقى الرعب في قلوب الرومان؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيداً أن الإفلات من برائتهم صعب جداً لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقية، وميمينته ميسرة، وعلى العكس، فلما رأهم الأعداء أنكروا حاتم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد - بعد أن ترأى الجيشان، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخذعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة^(٢).

قتلى الفريقين:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان، فلم يُعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم.

(١) نفس المصدر ٦١١/٢.

(٢) انظر فتح الباري ٥١٣/٧، ٥١٤، زاد المعاد ١٥٦/٢، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والتي قبلهما.

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقاً، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذيبيان وفزارة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية.

★ ★ ★

سرية ذات السلاسل

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسئولية الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سبباً للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ. على إثر معركة مؤتة ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قضاة قحطان تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليهم، ويمكن أن يكون السببان اجتماعاً معاً.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مر به من بلي وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمّن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً

كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً، وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس.

وسار حتى وطىء بلاد قضاة، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا.

وبعث عوف بن مالك الأشجعي بربيداً إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.

وذات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها: لغتان) بقعة وراء وادي القرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام. وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ناء بأرض جذام يقال له السلسل، فسمي ذات السلاسل^(١).

سرية أبي قتادة إلى خضرة

كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨ هـ. وذلك لأن بني غطفان كانوا يتحشدون في خضرة - وهي أرض محارب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً فقتل منهم، وسبا وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة^(٢).

(١) انظر ابن هشام ٢/٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، زاد المعاد ٢/١٥٧.

(٢) رحمة للعالمين ٢/٢٣٣، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٣.

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، وأستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرف به وجه الأرض ضياء وابتهاجا أهـ^(١).

سبب الغزوة:

قدمنا في وقعة الحديبية أن بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد - ﷺ - وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وثارات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨ هـ، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له «الوتير» فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع.

(١) زاد المعاد ٢/١٦٠.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراي الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدا حلفنا وحلف أبيه الأتلدا (١)
 قد كنتم ولدأ وكنا والدا (٢) ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
 فانصر، هداك الله، نصرأ أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله، قد تجردا أبيض مثل البدر، يسمو صعدا
 إن سيم خسفاً وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
 إن قريشأ أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقتك المؤكدا
 وجعلوا لي في كدأء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذل، وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا
 وقتلونا ركعأ وسجدا (٣)

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب.

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرأ محضأ ونقضأ صريحأ للميثاق لم يكن له أي مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسأ استشاريأ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها؛ ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة.

وخرج أبو سفيان - حسب ما قررته قريش - فلقي بديل بن ورقاء بعسفان - وهو

(١) الأتلد: القديم، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب.

(٢) يشير إلى أم عبد مناف - وهي حبي زوجة قصي - كانت من خزاعة.

(٣) يقول: قتلنا وقد أسلمنا.

راجع من المدينة إلى مكة - فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ - وظن أنه أتى النبي ﷺ - فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأق مبرك راحته، فأخذ من بعرها ففته، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجبر بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجبر بين الناس، وما يجبر أحد على رسول الله ﷺ.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج وبأس وقنوط: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحي. قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم ألحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجزت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قریش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته

أدنى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يعني عني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا فهل أجاز ذلك محمداً؟ قال: لا. قالوا: ويملك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

التهيؤ للغزوة ومحاوله الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدري. فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لي. وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً، وارتجز: يا رب إني ناشد محمداً.. الأبيات. فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة. وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن أضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ٨هـ، ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته (١).

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والمقداد، فقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش، فانطلقا تعادي بهما

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأصبط، فلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله محم بن جثامة لشيء كان بينها، وأخذ بعيره ومتبعه، فأنزل الله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ الآية، وجاؤوا بمحم ليستغفر له رسول الله ﷺ، فلما قام بين يديه قال: اللهم لا تغفر لمحم، وقالها ثلاثاً، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه، قال ابن إسحاق: وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك. انظر زاد المعاد ٢/١٥٠، وابن هشام ٢/٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨.

خيلها حتى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستنزلاها، وقالوا: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي: أحلف بالله، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبتنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجدة منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلبت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال: ما هذا يا حاطب؟ فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأً مخلصاً في قريش، لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم بدأ يحمون بها قرابتي. فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بداراً، وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم^(١).

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتبؤهم لنزحف والقتال.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨ هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري.

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعباله مسلماً مهاجراً، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما؛ لما كان يلقاه منها من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس لك. وقال علي لأبي سفيان بن الحارث: أتت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنا لخاطئين﴾ [١٢: ٩١]. فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان،

(١) انظر صحيح البخاري ٤٢٢/١، ٦١٢/٢.

فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ [١٢ : ٩٢] فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هداني هاد غير نفسي ودلني على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتني كل مطرد (١) .

الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد - وهو ماء بين عسفان وقديد - فأفطر وأفطر الناس معه (٢) ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادي فاطمة - نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ :

وركب العباس - بعد نزول المسلمين بمر الظهران - بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الخطابة أو أحداً يخبر قريشاً ؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبدليل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إني لأسير عليها - أي على بغلة رسول الله ﷺ - إذ سمعت كلام أبي سفيان وبدليل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً . قال : يقول بدليل : هذه والله خزاعة ، خمستها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

(١) حسن إسلام أبي سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياً منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وشهد له بالجنة ، وقال : أرجو أن يكون خلفاً من حزمة . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكوا علي ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ١٦٢/٢ ، ١٦٣ .

(٢) صحيح البخاري ٦١٣/٢ .

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حنظلة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك؟ فذاك أبي وأمي. قلت: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله.

قال: فما الحيلة؟ فذاك أبي وأمي، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع أصحابه.

قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا ينجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

الجيش الإسلامي يغادر من الظهران إلى مكة:

وفي هذا الصباح - صباح يوم الأربعاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ - غادر رسول الله ﷺ من الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يجلس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل^(١)، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فيقول - مثلاً -: سليم، فيقول: ما لي وسليم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال ما لي ولبني فلان؟ حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً. قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرم، اليوم أذل الله قريشاً. فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ فقال: كذا كذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً، ثم أرسل إلى سعد فتنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد. وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأخمش السابقين، قبح من طليعة قوم. قال أبو سفيان: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم

(١) الخطم: الأنف، شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق.

به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنك دارك ؟ قال :
 ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم
 وإلى المسجد ، وبشوا أوباشاً لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم ،
 وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلتنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي
 جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل
 من بني بكر - حماس بن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحاً ، فقالت له امرأته : لماذا تعد
 ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : إني
 والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إِنْ يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِي عََلَّهِ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّهُ

وَذُو غُرَارِينَ سَرِيعِ السَّلَةِ (١)

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخدمة .

الجيش الإسلامي بذي طوى :

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذي طوى - وكان يضع رأسه تواضعاً لله
 حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل -
 وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى - وفيها أسلم وسلم وغفار
 ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن
 عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافوني على الصفا .
 وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره
 أن يدخل مكة من أعلاها - من كداء - وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .
 وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر - وهم الذين لا سلاح معهم - فأمره أن يأخذ
 بطن الوادي ، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يدخل مكة :

وتحركت كل كتبية من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها فأما
 خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين
 كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش ، فسلكا

(١) عََلَّهِ : يقال عََلَّ الرجل يعل من المرض ، غرارين : حدين ، السله : الانتشال والسحب .

طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً، وأما سفهاء قريش فلقبهم خالد وأصحابه بالخدمة فناوشوهم شيئاً من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً فانهزم المشركون، وانهزم حماس بن قيس - الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقتي علي بابي. فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ فر صفوان وفر عكرمه
 واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمه
 ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه لهم نبيت خلفنا وهممه (١)
 لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وأقبل خالد بجيوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .
 وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح،
 وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل
 المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول
 البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿ جاء الحق وزهق
 الباطل، إن الباطل كان زهوقاً ﴾ [١٧ : ٨١] ﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما
 يعيد ﴾ [٣٤ : ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يومئذ، فاقصر على الطواف، فلما أكمله
 دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت، فدخلها، فرأى فيها
 الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام، فقال:
 قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط. ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده،
 وأمر بالصور فمحيت .

الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطف أمام قريش:

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا
 كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعموداً عن يمينه، وثلاثة

(١) النهيت والمهممة: أصوات.

أعمدة وراهه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أو أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ [٤٩: ١٣].

لا تثريب عليكم اليوم:

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء.

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي رضي الله عنه، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، وفي رواية: أن الذي قال ذلك هو العباس، فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له، فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

بلال يؤذن على الكعبة:

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال

الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته، فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك.

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلها، فأغلقت عليها باب بيتها، وسألت النبي ﷺ، فقال لها ذلك.

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبدالله بن أبي سرح، وعكرمة ابن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب ومقيس بن صبابه، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبي سرح، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ، وشفع فيه فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن، فاستأمت له امرأته، فأمنه النبي ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم، وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلقاً بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال: اقتله. فقتله.

وأما مقيس بن صبابه فقتله نميلة بن عبدالله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة، فقتله علي.

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزینب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنجس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى، فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

قال ابن حجر: وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلائع الخزاعي، فقتله علي، وذكر الحاكم أيضاً ممن أهدر دمه كعب بن زهير، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك، وقد أسلمت، وأرنب مولاة ابن خطل أيضاً قتلت، وأم سعد، قتلت فيما ذكر ابن إسحاق، فكمملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان، اختلف في اسمها، أو باعتبار الكنية واللقب^(١).

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفر، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده، فقال لرسول الله ﷺ: اجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار أربعة أشهر. ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرهما على النكاح الأول.

وكان فضالة رجلاً جريئاً جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو في الطواف، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم.

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات الأرض، فهي حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب.

(١) فتح الباري ١١/٨، ١٢.

وفي رواية: لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: إلا الإذخر.

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله.

وفي رواية: فقام رجل من أهل اليمن يقال له «أبو شاه» فقال: «اكتب لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه»^(١).

خوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة:

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهي بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعا يديه - فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلمت؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله المحيا محياكم، والممات مماتكم.

أخذ البيعة:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبائع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفي المدارك^(٢): روى أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، فبايع عمر النساء

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ١/٢٢، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٢ - ٢/٦١٥، ٦١٧،

وصحيح مسلم ١/٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، وابن هشام ٢/٤١٥، ٤١٦، وأبو داود ١/٢٧٦.

(٢) انظر مدارك التنزيل للنسفي تفسير آية البيعة.

على أن لا يشركن بالله شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: ولا تسرقن. فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: وإنك لهند؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك.

فقال: ولا يزينين. فقالت: أو تزني الحرة؟ فقال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت: ريبناهم صغاراً، وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسول الله ﷺ.

فقال: ولا يأتين بهتان. فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ولا يعصينك في معروف. فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

إقامته ﷺ بمكة، وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً، يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقوى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزامي، فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره.

السرايا والبعوث

١ - ولما اطمان رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها، وكانت بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وهي أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيبان، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها، فهدمها، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا قال: فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها، فارجع خالد متغيظاً قد جرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشزة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: نعم، تلك العزى، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً.

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليهدمه، وهو صنم لهذيل

برهاط، وعلى ثلاثة أميال من مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قال: لم؟ قال: تمنع. قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك، فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

٣ - وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة، وكانت بالمثلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادتها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل إليها سعد، وخرجت امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس تدعو بالويل، وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا في خزانته شيئاً.

٤ - ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شعبان من نفس السنة (٨ هـ) إلى بني جذيمة، داعياً إلى الإسلام، لا مقاتلاً. فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فأنهى إليهم، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: «صبأنا صبأنا» فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ، فذكروا له، فرفع ﷺ يديه وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد - مرتين - (١).

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله ﷺ علياً فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك، فبلغ ﷺ فقال: مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أحدٌ ذهباً، ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته (٢).

(١) صحيح البخاري ١/٤٥٠، ٢/٦٢٢.

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٣٨٩ إلى ٤٣٧، وصحيح البخاري ١/ كتاب الجهاد وكتاب المناكح ٢/٦١٢ إلى ٦١٥، ٦٢٢، فتح الباري ٨/٣ إلى ٢٧، وصحيح مسلم ١/٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ١٠٢/٢، ١٠٣، ١٣٠، وزاه المعاد ٢/١٦٠ إلى ١٦٨، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٣٢٢ إلى ٣٥١.

تلك هي غزوة فتح مكة، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاءً باتاً، لم يترك لبقائها مجالاً ولا مبرراً في ربوع الجزيرة العربية، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذي كان دائراً بين المسلمين والوثنيين، وكانت تلك القبائل تعرف جيداً أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أي تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت، فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول.

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضاً، وناظره في الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام، حتى إن عدد الجيش الإسلامي الذي لم يزد في الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر في هذه الغزوة في عشر آلاف.

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس، وأزالت عنها آخر الستور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام. وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني كليهما معاً في طول جزيرة العرب وعرضها، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية. فالطور الذي كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم، وكمل بهذا الفتح المبين، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماماً، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماماً. ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول ﷺ، فيعتنقوا الإسلام، ويحملوا دعوته إلى العالم، وقد تم استعدادهم لذلك في سنتين آتيتين.

المرحلة الثالثة

وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاماً.

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب في ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب.

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفتين:

١ - صفحة المجاهدة والقتال.

٢ - صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام.

وهاتان الصفتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، إلا أننا اخترنا في الترتيب الوضعي، أن نأتي على ذكر كل من الصفتين متميزة عن الأخرى، ونظراً إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب.

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شدها العرب، وبوغت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتخطرة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال - وكلها من قيس عيلان - رأت هذه البطون من نفسها عزا وأنفه أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

مسير العدو ونزوله بأوطاس:

ولما أجمع القائد العام - مالك بن عوف - المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم، فسار حتى نزل بأوطاس - وهو واد في دار هوازن بالقرب من حنين، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين، وحنين واد إلى جنب ذي المجاز، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات^(١).

مجرب الحروب يغلط رأي القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة - وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رايه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعاً مجرباً - قال دريد: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرر، ولا سهل دهم، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي وثغاء الشاة؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبنائهم، فدعا مالكاً وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيئاً؟ إنها إن كانت لك لم ينفكك إلا رجل بسيفه ورمح، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحر الخيل شيئاً، ارفمهم إلى ممتنع بلادهم وعلياهم قومهم، ثم ألق

(١) انظر فتح الباري ٤٢، ٣٧/٨.

الصباة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

ولكن مالكا - القائد العام - رفض هذا الطلب قائلاً: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعني هوازن أو لأتكنأ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أظعنك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الدمع كأنها شاة صدع

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم. قال: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ:

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسيرة العدو، فبعث أبا حردرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل.

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين:

وفي يوم السبت - السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ - غادر رسول الله ﷺ مكة - وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة - خرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

ولما كان عشية جاء فارس، فقال: إني طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائمهم، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرثد الغنوي^(١).

(١) انظر سنن أبي داود.

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويدبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: الله أكبر، قلم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها اسنن، لتركن سنن من كان قبلكم (١).

وقد كان بعضهم قال نظرا إلى كثرة الجيش: لن تغلب اليوم، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامي يباغت الرماة والمهاجرين:

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك ابن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرق كمناءه في الطرق والمدخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس، وفي عماية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي، فبينما هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين، لا يبوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب، وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - الأحمر - وصرخ جلبة أو كلدة ابن الجنيذ: ألا بطل السحر اليوم.

وإنحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: هلموا إلي أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته. وحينئذ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها. فقد طفق يركز بغلته قبيل الكفار وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

(١) روى ذلك الترمذي.

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذاً بلجام بغلته، والعباس بركابه، يكفانها، أن لا تسرع. ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً: اللهم أنزل نصرك.

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي الصحابة قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك (١). ويذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخني سبيله، فيؤم الصوت، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار، يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة. وتجادل الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحر واحتدم، فقال: «الآن حي الوطيس». ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم وقال: شامت الوجوه، فما خلق الله إنساناً إلا ملاً عينيه تراباً من تلك القبضة، فلم يزل حدهم قليلاً وأمرهم مدبراً.

إنكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة:

وما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمي القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن.

وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاحت عليكم الأرض بما رحبت، ثم ولّيم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ [٩: ٢٥، ٢٦].

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة، وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر

(١) صحيح مسلم ١٠٠/٢.

الأشعري، فتناوش الفريقان القتال قليلاً، ثم انهزم جيش المشركين، وفي هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري.

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع.

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

الغنائم:

وكانت الغنائم: السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية نضرة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها، ثم حبسها بالجرعانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف.

وكانت في السبي الشياء بنت الحارث السعدية؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم من عليها، وردها إلى قومها.

غزوة الطائف

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النصري - وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم في الجعرة في نفس الشهر - شوال سنة ٨ هـ.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف، فمر في طريقه على النخلة اليمانية، ثم على قرن المنازل، ثم على لية، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن.

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف في ذلك، فقيل: عشرين يوماً، وقيل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر (١).

(١) فتح الباري ٤٥/٨.

ووقعت في هذه المدة مراماة ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميةً شديداً كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل مهم اثنا عشر رجلاً، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فمسكروا هناك.

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابه^(١)، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجلاً.

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الإستسلام - أمر بقطع الأغراب وتحريقها. فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم.

ونادى مناديه ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون^(٢) رجلاً فيهم أبو بكر - تسور حصن الطائف وتدل منه ببكرة مستديرة يستقي عليها، فكانه رسول الله ﷺ «أبا بكر» - فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة.

ولما طال الحصار، واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة - وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال: هم نعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتح؟ فقال رسول الله ﷺ: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك.

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا: آييون تائبون عابدون، لربنا حامدون.

(١) لم تكن الدبابه كدبابتنا اليوم، وإنما كانت تصنع من الخشب، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها، أو ليدخلوا من النقبات.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٢٠.

وقيل: يا رسول الله ادع على ثقيف، فقال: اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم.

قسمة الغنائم بالجرعانة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف؛ مكث بالجرعانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأني بها، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليست المتطلعين من رؤساء القبائل وأشرف مكة، فكان المؤلفلة قلوبهم أول من أعطي وحظي بالأنصبة الجزلة.

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة - كذا في الشفاء^(١)، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وكذلك أعطى من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر، فزدحت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال: أيها الناس ردوا على ردائي، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما أليتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعه، ثم رفعها، فقال: أيها الناس، والله مالي من فينكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. وبعد إعطاء المؤلفلة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً ومائة شاة.

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، فإن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له^(٢).

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للمصطفى للفاضل عياض ١/٨٦.

(٢) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص ٢٩٨، ٢٩٩.

الأنصار تجد على رسول الله ﷺ :

وهذه السياسة لم تفهم أول الأمر، فأطلقت السنة شتى بالإعتراض، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصاراً، وها هم أولاء يرون أيدي الفارين ملأى، وأما هم فلم يمنحوا شيئاً قط (١).

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقيى والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفياء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظيماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي: قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال: ألا تحببوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نحبيك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: آتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت

(١) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص ٢٩٨، ٢٩٩.

امراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسككت الأنصار شعباً، لسككت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ تسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا^(١).

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً، وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسهم زهير ابن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال، وأدلوا إليه بكلام ترق له القلوب، فقال: إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إلي أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالإحساب شيئاً. فقال: إذا صليت الغداة - أي صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وأسألكم الناس، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً. فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا، فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ فقال: إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض. فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبي أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية قبطية.

(١) ابن هشام ٤٤٩/٢، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخاري ٦٢٠/٢، ٦٢١.

العمرة والإنصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الجعرانة أهلّ معتمراً منها، فأدى العمرة، وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة سنة ٨ هـ.

قال محمد الغزالي: لله ما أفسح المدى الذي بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين، وبين مقدمة إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام؟

لقد جاءه مطارداً يبغي الأمان، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس، فأكرم أهله منواه، وآووه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، واستخفوا بعداوة الناس جميعاً من أجله، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجراً خائفاً؛ لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها فأنهضها؛ ليعزها بالإسلام، وعفا عن خطيئتها الأولى ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢: ٩٠] (١).

(١) فقه السيرة ص ٣٠٣، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف، وما وقع خلالها - زاد المعاد ج ٢ ص ١٦٠ إلى ٢٠١، وابن هشام ج ٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١، وصحيح البخاري أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج ٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢، وفتح الباري ج ٨ من ص ٣ إلى ٥٨.

البعث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل لوفود، ويبعث العمال، ويبث الدعاة، ويكتب من بقي فيه الإستكبار عن الدخول في دين الله، والاستسلام للأمر الواقع الذي شاهدته العرب. وهاك صورة مصغرة من ذلك:

المصدقون:

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان في أواخر أيام السنة لثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩ هـ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل. وهذه هي قائمتهم:

- ١ - عيينة بن حصن إلى بني تميم.
- ٢ - يزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار.
- ٣ - عباد بن بشير الأشهلي إلى سليم ومزينة.
- ٤ - رافع بن مكيث إلى جهينة.
- ٥ - عمرو بن العاص إلى بني فزارة.
- ٦ - الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب.
- ٧ - بشير بن سفيان إلى بني كعب.
- ٨ - ابن اللبية الأزدي إلى بني ذبيان.
- ٩ - المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء. (وخرج عليه الأسود العنسي وهو بها).
- ١٠ - زياد بن لبيد إلى حضرموت.
- ١١ - عدي بن حاتم إلى طيء وبني أسد.
- ١٢ - مالك بن نويرة إلى بني حنظلة.
- ١٣ - الزبيرقان بن بدر إلى بني سعد. (إلى قسم منهم).
- ١٤ - قيس بن عاصم إلى بني سعد. (إلى قسم آخر منهم).

١٥ - العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

١٦ - علي بن أبي طالب إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في المحرم سنة ٩ هـ؛ بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الإهتمام البالغ في المحرم سنة ٩ هـ. وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً.

السرايا:

وكما بعث المصدقون إلى القبائل، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة. وهاك لوحة تلك السرايا:

١ - سرية عيينة بن حصن الفزاري - في المحرم سنة ٩ هـ - إلى بني تميم، في خسين فارساً، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري، وسببها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل، ومنعواهم عن أداء الجزية.

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكمن النهار، حتى هجم عليهم في الصحراء، فولى القوم مدبرين، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، وساقهم إلى المدينة، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث.

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، فخرج فتعلقوا به، وجعلوا يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى حتى صلى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة، وقدموا خطيبهم عطارد ابن حاجب فتكلم، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخراً، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم^(١).

(١) هكذا ذكره أهل المغازي إن هذه السرية كانت في المحرم سنة ٩ هـ. وفيه نظر ظاهر، فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن قبلها، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بني هوازن: أما أنا وبنو تميم فلا. وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية.

٢ - سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، في صفر سنة ٩ هـ . خرج قطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقتل قطبة مع من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ - سرية الضحك بن سفيان الكلبي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثت هذه السرية إلى بني كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلاً .

٤ - سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ في ثلاثمائة . بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة . فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة . فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا^(١) .

٥ - سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء . يقال له القلس - ليهدمه - في شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ . بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرساً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء ، وفي السبي أخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام ، ووجد المسلمون في خزانة القدس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفي الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفي لرسول الله ﷺ . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدي بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، غاب الوافد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بي من خدمة ، فمَنْ عَلَيَّ ، مَنْ الله عليك . قال : من وافدك ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : الذي فر من الله ورسوله ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال أمس . فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فمَنْ عَلَيْهَا ، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه علي - فقال لها : سليه الحملان . فسألته ، فأمر لها به .

ورجعت أخت عدي بن حاتم إلى أخيها عدي بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعله ما كان أبوك يفعلها ، ائنه راغباً أو راهباً فجاءه عدي بغير أمان ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما

(١) فتح الباري ٥٩/٨ .

يفرك؟ أيفرك أن تقول: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟ قال: لا. ثم تكلم ساعة ثم قال: إنما تفر أن يقال: الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ قال: لا. قال: فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصرى ضالون. قال: فإني حنيف مسلم. فانبسط وجهه فرحاً، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار (١).

وفي رواية ابن إسحاق عن عدي: أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه في داره قال له: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً؟ قال: قلت: بلى. قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى. قال: فإن ذلك لم يحل لك في دينك. قال: قلت أجل والله. قال: وعرفت أنه نبي مرسل، يعرف ما يجهل (٢).

وفي رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال: يا عدي أسلم تسلم. فقلت إني من أهل دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال نعم، ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ فقلت: بلى قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك. قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها (٣).

وروى البخاري عن عدي قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله، فلا يجد أحداً يقبله منه - الحديث - وفي آخره: قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ « يخرج ملء كفه » (٤).

(١) زاد المعاد ٢/٢٠٥.

(٢) ابن هشام ٢/٥٨١.

(٣) مسند الإمام أحمد.

(٤) صحيح البخاري انظر مشكاة المصابيح ٢/٥٢٤.

غزوة تبوك

في رجب سنة ٩ هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل : لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً - كما سيظهر ذلك مما تقدمه في فصل الوفود ، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع - وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة:

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهي قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي - على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداماً عنيفاً في مؤتة ، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريتهم وبعيدهم .

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطنهم للمسلمين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يرى أنه يجب القضاء على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة ؛ حتى أخذ يهيء

الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة.

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان:

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنون زحف الرومان، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة (٩ هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له، ولم يفتن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق، يقول عمر بن الخطاب - وهو يروي هذه القصة -: وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان في عوالي المدينة، يتناوبان إلى النبي ﷺ - ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. الحديث (١).

وفي لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أناثم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه. الحديث (٢).

وهذا يدل على خطورة الموقف. الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان. ويزيد ذلك تأكيداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ في كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق، برغم هذا كله طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق ما كانوا يخفونه في صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله. ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدرس والتأمر، في صورة مسجد، وهو مسجد الضرار، أسسوه كفرةً وتفريقاً بين المؤمن وإرصاداً لمن

(٢) نفس المصدر ١/٣٣٤.

(١) صحيح البخاري ٢/٧٣٠.

حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلي فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخذعوا المؤمنين، فلا يفتنوا ما يؤتى به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم في الخارج، ولكن رسول الله ﷺ أصر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القبول من الغزو، بدل أن يصلي فيه.

الأخبار الخاصة عن إستعداد الرومان وغسان:

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيا جيشاً عرموماً قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عطاء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لحم وجزام وغيرها من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء. وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

زيادة خطورة الموقف:

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس في عسرة وجذب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الشار قد طابت، فكانوا يجوبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال، من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة.

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله. إنه كان يرى أنه لو تواني وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة؛ كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية، وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاسمة في حنين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبي عامر الفاسق سيبيعون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا يخفق كثير من الجهود التي بذلها هو

وأصحابه في نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى.

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيداً، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة بخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلى للناس أمرهم، ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجهاد، وتحثهم على القتال. ورغبهم رسول الله ﷺ في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله.

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى أمثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ [٩: ٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات. كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم^(١)، ثم تصدق وتصدق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبدالرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله، ولم يترك

(١) جامع الترمذي. مناقب عثمان بن عفان ٢/٢١١.

لأهله إلا الله ورسوله - وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عباد و محمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم.

ولم يمك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهودهم فيسخرون منهم﴾ [٧٩: ٩].

الجيش الإسلامي إلى تبوك:

وهكذا تجهز الجيش، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وقيل سباع بن عرفطة، وخلف على أهله علي بن أبي طالب، وأمره بالإقامة فيهم، وغمص عليه المنافقون، فخرج فلحق برسول الله ﷺ، فرده إلى المدينة وقال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.

ثم تحرك رسول الله ﷺ نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيراً - ثلاثون ألف مقاتل، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط - فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزاً كاملاً. بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقون بعيراً واحداً، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح العير - مع قلتها - ليشربوا ما في كروشها من الماء، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة.

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود ﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾، أي وادي القرى - فاستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة. وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام.

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي (١).

(١) صحيح البخاري باب نزول النبي ﷺ بالحجر ٦٣٧/٢.

واشتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لم تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتَى . قال معاذ : فجننا وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض بشيء من مائها ، فسألها رسول الله ﷺ : هل مستما من مائها شيئاً ؟ قالوا : نعم . وقال لها ما شاء الله أن يقول ، ثم عرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً^(١) .

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ : تهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقيم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقت به بجبلي طيء^(٢) .

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما .

الجيش الإسلامي بتبوك :

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، فعسكر هناك ، وهو يستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فخطب خطبة بليغة ، أتى بجوامع الكلم ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين .

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم ،

(٢) نفس المصدر .

(١) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢/٢٤٦ .

وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا صريقاً يريدونه من بر أو بحر ».

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعمئة وعشرين فارساً، وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فاتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيده - وكانت ليلة مقمرة - فلتقاه خالد في خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمئة رأس، وأربعمئة درع، وأربعمئة رمح، وأقر بإعطاء الجزية، فقااضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتبهاء.

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيداً، وكفى الله المؤمنين القتال، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادي، فانتهاز أولئك المنافقون هذه الفرصة. فبينما رسول الله ﷺ وصاحبه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتشمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم، وبما هموا به، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾.

ولما لاح للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: هذه طابة، وهذا أحد، جبل يجبنا

ونجبه، وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن^(١):

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً. أقام منها عشرين يوماً في تبوك. والبواقي قضاها في الطريق جيئةً وذهباً. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ.

المخلفون:

وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها - اختباراً شديداً من الله تعالى، امتاز به المؤمنون من غيرهم. كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن، حيث يقول: ﴿ما كان الله ليجزي المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ [٣: ١٧٩] فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادقاً، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكره لرسول الله ﷺ قال لهم: دعوه، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للعود كذباً، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأساً. نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر. وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلاً^(١) - فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعدار، وطفقوا يلحفون له، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية - فاخترأوا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا

(١) هذا رأي ابن القيم وقد مضى البحث عليه.

(٢) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم، وأن عبدالله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عدداً كبيراً (انظر فتح الباري ١١٩/٨).

هؤلاء الثلاثة، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضائق عليهم بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم﴾ [١١٨ : ٩] .

وفرح المسلمون، وفرح الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه وغايته، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾، الآيتين [٩ : ٩١] ، [٩٢] وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة: « إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم العذر »، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة .

أثر الغزوة:

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذي لم يجدوا عنه محيداً ولا مناصاً .

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم، والقيام على قبرهم، وأمر بهدم وكرة دسهم وتأميرهم التي بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضحاً تاماً، لم يبق في معرفتهم بعدها أي خفاء، كأن الآيات قد نصت على أسائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى

رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة؛ بل وما قبلها؛ إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة^(١).

نزول القرآن حول موضوع الغزوة:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج - وهو في السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة، وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين والمخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين، إلى غير ذلك من الأمور.

★ ★ ★

بعض الوقائع المهمة في هذه السنة:

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ:

- ١ - بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلاني وامرأته.
- ٢ - رجعت المرأة الغامدية التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة، رجعت بعد ما فطمت ابنها.
- ٣ - توفي النجاشي أصحمة، ملك الحبشة، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب.
- ٤ - توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ، فحزن عليها حزناً شديداً، وقال لعثمان: لو كانت عندي لزوجتكها.
- ٥ - مات رأس المنافقين عبدالله بن أبي سلول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر.

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٥١٥/٢ إلى ٥٣٧، وزاد المعاد ٢/٣ وصحيح البخاري ٦٣٣/٢، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧ و٢٥٢/١، ٤١٤ وغيرها وصحيح مسلم مع شرحه للنووي ٢٤٦/٢. وفتح الباري ١١٠/٨ إلى ١٢٦ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي من ص ٣٩١ إلى ٤٠٧.

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩ هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج؛ ليقم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض الموائيق ونبذها على سواء، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك، وذلك تمهيداً منه على عادة العرب في عهد الدماء والأموال، فالتقى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال علي: لا، بل مأمور ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ. ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأجل لهم أربعة شهور، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً، ولم يظاهروا عليهم أحداً، فأبقى عهدهم إلى مدتهم.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ينادون في الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب، وأنها لا تبتدىء ولا تعيد بعد هذا العام^(١).

(١) صحيح البخاري ١/٢٢٠، ٤٥١، ٦٢٦/٢، ٦٧١، زاد المعاد ٣/٢٥، ٢٦، ابن هشام ٢/٥٤٣،

٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه؛ لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها - لا يمكن لنا إلا أن نقول: إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأسدهم وأعمقهم فراسة وتيقظاً، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيها الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلظة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش، وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفعة القتال، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ما عرفتها وتعرف الدنيا في القواد. ولم يقع ما وقع في أحد وحين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حنين - أو من جهة معصيتهم وأوامره، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبها عليهم من حيث الوجهة العسكرية.

وقد تجلت عبقرية النبي ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبت مجابهاً للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه هي من ناحية القيادة العسكرية الخالصة. أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية، وإجئهم إلى المصالحة، وتخليه السبيل لنشر الدعوة، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق، ويضمّر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لا قوا بعده الفرس والرومان في ميادين

العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاعل للمسلمين، حتى تفصي من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهياً السلاح والكرام والعدة والنفقات، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمقتال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله.

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمت النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذ سارت هذه الحرب - في الإسلام - جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهاداً في تخلص الإنسان من نظام القهر والعدوان. إلى نظام العدالة والنصف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه، وصارت جهاداً في تخلص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً. واجعل لنا من لدنك نصيراً، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرفقة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، فلا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً.. الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا^(١). وكان إذا جاء قوماً بليل لم يفر عليهم حتى يصبح،

(١) صحيح مسلم ٨٢/٢، ٨٣.

ونهى أشد النهي عن التحريق في النار، ونهى عن قتل الصبر، وقتل النساء وضربهن، ونهى عن النهب حتى قال: إن النهي ليست بأحل من الميتة. ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة، ولا يبقى سواه سبيل. وقال عند فتح مكة: لا تجهزن على جريح، ولا تبعن مدبراً، ولا تقتلن أسيراً، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال: من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً... إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية، حتى جعلتها جهاداً مقدساً^(١).

(١) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعاد ٢/٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، والجهاد في الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٢١٦ إلى ٢٦٢.

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة، قضت على الوثنية قضاء باتاً، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل، وزالت عنهم الشبهات، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام. قال عمرو بن سلمة: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ - أي النبي ﷺ - فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه. أوحى الله كذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام، فكأنما يقرأ في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتمكم والله من عند النبي ﷺ حقاً. فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآناً. الحديث (١).

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك أي تأكد بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين - التاسع والعاشر - ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجا، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل، ثم نرى في حجة الوداع بجرأ من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفاً منهم - يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوي له الآفاق، وترتج له الأرجاء.

الوفود:

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفداً، ولا يمكن لنا استقصاؤها، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها، وإنما نذكر منها إجمالاً ما له روعة أو

(١) صحيح البخاري ٢/٦١٥، ٦١٦.

أهمية في التاريخ. وليكن على ذكر من القاريء أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح؛ ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضاً :

١ - وفد عبد القيس - كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان، يرد المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إن فيك خصلتين يجبهها الله: الحلم والأناة.

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدي، وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه^(١).

٢ - وفد دوس - كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه، حتى يش منهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: اللهم اهد دوساً. ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فلقح به.

٣ - رسول فروة بن عمرو الجذامي - كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان، عاملاً لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعدما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨ هـ. ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً يأسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختر الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء، وضربوا عنقه^(٢).

٤ - وفد صداء - جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ. وذلك أن رسول الله ﷺ هياً بعثاً من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٣٣/١، فتح الباري ٨/٨٥، ٨٦.

(٢) زاد المعاد ٣/٤٥، تفهيم القرآن ٢/١٦٩.

الصدائهي، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائهي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم، وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع.

٥ - قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى - كان من بيت الشعراء، ومن أشعر العرب، وكان يهجو النبي ﷺ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨ هـ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، وإلا فانح إلى نجاتك. ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب، وأشفق على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل في جهينة، وصلى معه الصبح، فلما انصرف أشار عليه الجهني، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول الله. إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: نعم. قال: أنا كعب بن زهير. فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: دعه عنك، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه.

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التي أولها:

بانيت سعاد فقلبي اليوم متبول مقيم إثرها، لم يفد، مكبول

قال فيها - وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ، ويمدحه -:

نبئت أن رسول الله أوعديني مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذن بأقوال الوشاة ولم لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
لظل يرعد، إلا أن يكون له حتى وضعت يميني ما أنزاعه
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعيط وتفصيل أذنب، ولو كثرت في الأقاويل
أرى وأسمع ما لو يسمع القبيل من الرسول بإذن الله تنويل
في كف ذي نقمات قبيله القبيل وقيل: إنك منسوب ومستول

من ضيغم بضراء الأرض مخدره في بطن عثير غيل دونه غيل
 إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
 ثم مدح المهاجرين من قريش؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا
 بخير، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه، قال:
 يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنايبيل
 فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له، وتدارك ما كان قد فرط منه
 في شأنهم، قال في تلك القصيدة:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحى الأنصار
 ورثوا المكارم كابرًا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

٦ - وفد عذرة - قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ. وهم اثنا عشر رجلاً فيهم
 حمزة بن النعمان. قال متكلمهم حين سئلوا من القوم: نحن بنو عذرة، أخوة قصي لأمه،
 نحن الذين عضدوا قصياً، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، لنا قرابات وأرحام،
 فرحب بهم النبي ﷺ، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح
 التي كانوا يذبحونها. أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا.

٧ - وفد بلي - قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثاً، وقد سأل
 رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، وكل
 معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة، وسأل عن وقت الضيافة، فقال: ثلاثة أيام،
 وسأل عن ضالة الغنم فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب، وسأل عن ضالة البعير،
 فقال: مالك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه.

٨ - وفد ثقيف - كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩ هـ. بعد مرجع رسول الله ﷺ
 من تبوك. وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ
 بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم
 عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام - وهو يظن أنهم يطيعونه؛ لأنه كان سيداً
 مطاعاً في قومه، وكان أحب إليهم من أبقارهم - فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل
 من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة
 لهم بحرب من حولهم من العرب - الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا - فأجمعوا أن يرسلوا
 جلاً إلى رسول الله ﷺ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى،

وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان أحدثهم سناً.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد، لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف. يأذن لهم فيها بالزنا وشرب الخمر وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك، فخلوا وتشاوروا، فلم يجدوا محيصاً عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشتروطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبداً؛ فقبل ذلك، وكتب لهم كتاباً، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن؛ وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ، ويختلفون عثمان بن أبي العاص في رحاهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ، فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائماً عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض، (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة، فإن ثقيفاً لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا على الردة، وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال، وأظهر الحزن والكتابة، وأن رسول الله ﷺ سأهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيفاً نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً هدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف. فضرب بالكرزتين، ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الربة، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله، إنما هي لكاع حجارة ومدر، ثم ضرب الباب فكسره،

ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها، وأخرجوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحد الله على نصرته نبيه وإعزاز دينه (١).

٩ - رسالة ملوك اليمن - وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حير، وهم الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قيل ذي رعين، وهمدان ومعاfer، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجلاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل.

١٠ - وفد همدان - قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النبط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً، فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان، السلام على همدان.

١١ - وفد بني فزارة - قدم هذا الوفد سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم في بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام، وشكوا جذب بلادهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً، مغيثاً، مريحاً، مريعاً، طبقاً، واسعاً، عاجلاً، غير أجل، نافعاً غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء (٢).

١٢ - وفد نجران - (نجران، بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع (٣)، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية).

(١) زاد المعاد ٣/٢٦، ٢٧، ٢٨، ابن هشام ٣/٥٣٧ إلى ٥٤٢. (٢) فتح الباري ٨/٩٤

(٣) زاد المعاد ٣/٤٨.

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ، وقوام الوفد ستون رجلاً، منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران، أحدهم العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح، والثاني السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل، والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [٣: ٥٩، ٦٠، ٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى ابن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خيل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فجاؤوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتاباً، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً؛ لياتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين^(١).

(١) فتح الباري ٨/٩٤، ٩٥. زاد المعاد ٣/٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية =

١٣ - وفد بني حنيفة - كانت وفادتهم سنة ٩ هـ. وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب^(١) - وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة - نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد التأمل في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ أراد إستثلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً، فلما رأى أن ذلك لا يجدي فيه نفعاً تفرس فيه الشر.

وكان النبي ﷺ قد أريَ قبل ذلك في المنام أنه أتى بجزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحى إليه أن انفخهما، فنفخهما، فذهبا، فأولهما كذابين يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف - وقد كان يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته - جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فكلمه فقال له مسيلمة: إن شئت خلتنا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، والله إنني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني. ثم انصرف^(٢).

وأخيراً وقع ما تفرس فيه النبي ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى الهامة بقي يفكر في أمره، حتى ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ، فادعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحل لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، وافتتن به قومه فتبعوه، وأصفقوا معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له رحمان الهامة لعظم قدره فيهم. وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: إنني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين﴾^(٣).

= وفد نجران، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين، وقد ذكرنا - ملخصاً - ما نرجح عندنا في هذا الوفد.

(١) فتح الباري ٨/٨٧.

(٢) انظر صحيح البخاري باب وفد بني حنيفة، وباب قصة الأسود العنسي ٢/٦٢٧، ٦٢٨ وفتح الباري ٨/٨٧ إلى ٩٣.

(٣) زاد المعاد ٣/٣١، ٣٢.

وعن ابن مسعود قال: جاء ابن النواحة، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ، فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله؟ فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبي ﷺ: آمنت بالله ورسوله. لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما^(١).

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢ هـ، قتله وحشي قاتل حزة. وأما المنتبى، الثاني، وهو الأسود العنسي الذي كان باليمن، فقتله فيروز، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحي فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه^(٢).

١٤ - وفد بني عامر بن صعصعة - كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله واربذ بن قيس - أخو لبيد لأمه - وخالد بن جعفر، وجبار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأمر عامر واربذ، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ، ودار اربذ خلفه، واخترط سيفه شبراً، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبي ﷺ، فلما رجعا أرسل الله على اربذ وجله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول: أغدة كغدة البعير، وموتاً في بيت السلولية.

وفي صحيح البخاري: أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء، فطعن في بيت امرأة، فقال: أغدة كغدة البعير، في بيت امرأة من بني فلان، إبتوني بفرسي. فركب، فمات على فرسه.

١٥ - وفد تجيب - قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم وكان الوفد ثلاثة عشر رجلاً، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحلهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمي، وأن يجعل غناي في قلبي، فدعا له بذلك، فكان أفتح الناس، وثبت في الردة على الإسلام، وذكر قومه؛ ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠ هـ.

(٢) فتح الباري ٩٣/٨.

(١) رواه الإمام أحمد، مشكاة المصابيح ٣٤٧/٢.

١٦ - وفد طيء - قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل، فلما كلموا النبي ﷺ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ عن زيد: ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيت دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه، وسماه زيد الخير.

وهكذا تابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن، والأزد وبني سعد هذيم من قضاة، وبني عامر بن قيس، وبني أسد، وبهراء، وخولان، ومحارب، وبني الحارث بن كعب، وغامد، وبني المنتفق، وسلامان، وبني عبس، ومزينة، ومراد، وزبيد، وكندة، وذوي مرة، وغسان، وبني عيش، ونمغ - وهو آخر الوفود، توافد في منتصف محرم سنة ١١هـ في مائتي رجل - وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ١٠هـ و٩هـ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ. وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيصاً عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرباً ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء. والله سميع عليم﴾ [٩٧: ٩، ٩٨] وأثنى على آخرين منهم فقال: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، ألا إنها قربة لهم، سيدخلهم الله في رحمته، إن الله غفور رحيم﴾ [٩٩: ٩].

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين؛ فقد كان الإسلام فيهم قوياً، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين^(٦).

(١) كلمة للخضري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١٤٤/١.

وانظر في تفاصيل الوفود إلى ذكرناها أو أشرنا إليها، صحيح البخاري ١٣/١، ٦٢٧، ٦٢٦/٢، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠ وابن هشام ٥٠١/٢، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٦٠ إلى ٦٠١، وزاد المعاد ٢٦/٣ إلى ٦٠، وفتح الباري ٨/٨٣ إلى ١٠٣ ورحمة للعالمين ١٨٤/١ إلى ٢١٧.

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ، ينبغي لنا أن نلقي نظرة إجمالية على العمل الجليل الذي هو فذلكة حياته، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين.

إنه ﷺ قيل له: ﴿يا أيها المزمّل . قم الليل إلا قليلاً﴾ الآيات . و﴿يا أيها المدثر . قم فأندر﴾ الآيات، فقام، وظل قائماً أكثر من عشرين عاماً، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى.

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبهها، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلاها، حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر، بل معارك متلاحقة.. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها، وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها، قبل أن تنمو وتعد جذورها في التربة، وفروعها في الفضاء، وتظل مساحات أخرى.. ولم يكذب يفرغ من معارك الجزيرة العربية؛ حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية.

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت، فهي معركة خالدة، الشيطان صاحبها، وهو لا يني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة، في شظف من العيش، والدنيا مقبلة عليه، وفي جهد وكد، والمؤمنون يستروحوون من حوله ظلال الأمن والراحة؛ وفي نصب دائم لا ينقطع، وفي صبر جميل على هذا كله، وفي قيام الليل، وفي عبادة لربه، وترتيل لقرآنه، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل (١).

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً، لا يلهيه شأن عن

(١) كلمة سيد قطب في ظلال القرآن ٢٩/١٦٨، ١٦٩.

شأن في خلال هذا الأمد، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع بتحير له العقول، فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصَحَّت العقول العليلة، حتى تركت الأصنام؛ بل كسرت، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالاً وجنوباً، يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله.

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور، وسادات وعبيد، وحكام ومحكومون، وظالم ومظلوم، وإنما الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، ممثلون لأحكامه، أذهب الله عنهم عُبَّة الجاهلية ونحوتها وتعاضلها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب. وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفي مسائلها الأخروية، فتقلب مجرى الأيام، وتغير وجه الأرض، وانعدل خط التاريخ، وتبدلت العقلية.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل الدعوة - ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانحيار، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب؛ لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة (١).

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها.

(١) من كلمة سيد قطب في «مقدمة ماذا خسر العالم باعطاء المسلمين ص ١٤.

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذاً على اليمن سنة ١٠ هـ قال له فيما قال: يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكي معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ. وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ألواناً من المتاعب بضعاً وعشرين عاماً، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثلها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة.

أعلن النبي ﷺ بقصده هذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتبس أن يأتي برسول الله ﷺ^(١). وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة تهباً النبي ﷺ للرحيل^(٢)، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه. وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر، فصلاهما ركعتين، وبات هناك حتى أصبح، فلما أصبح قال لأصحابه: أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة^(٣).

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبيص الطيب يرى في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يعسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما، ثم خرج، فركب القصواء، فأهل أيضاً، ثم أهل لما استقلت به على البيداء.

(١) روى ذلك مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٤.

(٢) حقق ذلك ابن حجر تحقيقاً أليفاً، مع تصحيح ما ورد من أنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة انظر فتح الباري ٨/١٠٤.

(٣) رواه البخاري عن عمر ١/٢٠٧.

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذي طوى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠ هـ - وقد قضى في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى - فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل، لأنه كان قارناً قد ساق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند الحجون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هدي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم يحلوا حلالاً تاماً، فترددوا، فقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدى لأحللت، فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة - وهو يوم التروية - توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر - خمس صلوات - ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس، فقام فيهم خطيباً، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً^(١).

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوعة، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحلتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

(١) ابن هشام ٦٠٣/٢.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله ^(١).

أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولاد أمركم، تدخلوا جنة ربكم.

وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس «اللهم اشهد». ثلاث مرات ^(٢).

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف ^(٤).

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [٣: ٥] وعندما سمعها عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان ^(٥).

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهله، ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً.

فدفع - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى،

(١) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ٣٩٧/١.

(٢) معدن الأعمال، ورواه ابن ماجة وابن عساكر، رحمة للعالمين ٢٦٣/١.

(٣) مسلم ٣٩٧/١.

(٤) ابن هشام ٦٠٥/٢.

(٥) رواه البخاري عن ابن عمر... أنظر رحمة للعالمين ٣٦٥/١.

حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة - وهي الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر - وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة - وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوفاً فشرب منه ^(١)

وخطب النبي ﷺ يوم النحر - عاشر ذي الحجة - أيضاً حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلي يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد ^(٢) . وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبي بكر قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى . فأبى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » .

« وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(١) رواه مسلم عن جابر ، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أي وقت يطبخ يوم النحر ١/٣٧٠ .

« ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع»^(١).

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يشس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»^(٢).

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الراءوس، فقال: أليس هذا أوسط أيام التشريق^(٣). وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفي يوم النفر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بجيف بني كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع. ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظاً من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله^(٤).

(١) صحيح البخاري، باب الخطبة أيام منى ٢٣٤/١.

(٢) رواه الترمذي ٣٨/٢، ١٣٥ وابن ماجة في الحج، مشكاة المصابيح ٢٣٤/١.

(٣) أبو داود. باب أي يوم يخطب بمنى ٢٦٩/١.

(٤) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري كتاب المناسك ج ١ ٦٣١/٢ وصحيح مسلم باب حجة

النبي ﷺ وفتح الباري ج ٣ من شرح كتاب المناسك وج ١٠٣/٨ إلى ١١٠ وابن هشام ٦٠١/٢ إلى

٦٠٥، زاد المعاد ١/١٩٦، ٢١٨ إلى ٢٤٠.

آخر البعوث

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى عليه حق الحياة، وحلها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان والياً على معان من قبل الروم.

ونظراً إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١ هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسن أحد أن بطش الكنيسة لا معتب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الخوف فحسب.

وتكلم الناس في قائد الجيش لحدائثه سنه، واستبطأوا في بعثه، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إماره أبيه من قبل، وأم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده^(١).

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجرف، على فرسخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق^(٢).

(١) صحيح البخاري. باب بعث النبي ﷺ أسامة ٦١٢/٢.

(٢) المصدر السابق وابن هشام ٦٠٦/٢، ٦٥٠.

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع:

لما تكاملت الدعوة، وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ، وتنضح بعباراته وأفعاله.

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، وقال وهو عند جرة العقبة: خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فرطكم، وإني شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها^(١).

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع فاستغفر لهم، وقال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى. وبشرهم قائلاً: إنا بكم للاحقون.

بداية المرض:

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ - وكان يوم الإثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع - وهو في الطريق - أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجردون سورتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه.

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوماً، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوماً.

(١) متفق عليه، صحيح البخاري ٥٨٥/٢.

الأسبوع الأخير:

وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟ « ففهم من مراده، فأذن له يكون حيث شاء، فانتقل إلى عائشة، يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها، ففضى عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام:

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع وغمي، فقال: هريقوا علي سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم، فأقعدوه في مخضب، وصبوا عليه الماء، حتى طفق يقول: « حسبكم، حسبكم ». وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد - وهو معصوب الرأس - حتى جلس على المنبر، وخطب الناس - والناس مجتمعون حوله - فقال:

« لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - وفي رواية « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - وقال: لا تتخذوا قبوري وثناً يعبد » .

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: « من كنت جلدت له ظهرأ فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه » .

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحاء وغيرها، فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل، ثم أوصى بالأنصار قائلاً:

« أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعييتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئتهم » وفي رواية أنه قال: « إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالمالح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه

(١) صحيح البخاري ٦٢/١، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠. (٢) موطأ الإمام مالك ص ٦٥.

أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن سيئهم» (١).

ثم قال: «إن عبداً خيره الله أن يؤتبه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده» قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر. قال: فدينك بأبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتبه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فدينك بأبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا (٢).

ثم قال رسول الله ﷺ: إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر (٣).

قبل أربعة أيام:

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتد به الوجع - : هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده - وفي البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا عني (٤).

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركون من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوي، ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هي «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفاً (٥).

(١) صحيح البخاري ٥٣٦/١.

(٢) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٥٤٦/٢.

(٣) متفق عليه. مشكاة المصابيح ٥٤٨/٢، صحيح البخاري ١/٢٢، ٤٢٩، ٤٤٩، ٦٣٨/٢.

(٤) رواه البخاري عن أم الفضل باب مرض النبي ﷺ ٦٣٧/٢.

(٥) متفق عليه مشكاة المصابيح ١٠٢/١.

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد. قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماء في المخضب. ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ - ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حيناً أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام^(١)؛ ١٧ صلاة في حياته ﷺ.

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر، حتى لا يتشاءم به الناس، فأبى، وقال: إنكن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل بالناس.

قبل يوم أو يومين:

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأوماً إليه بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويسمع الناس التكبير^(٢).

قبل يوم:

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غلامه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جاريتها، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير.

آخر يوم من الحياة:

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بيناهم في صلاة الفجر يوم الإثنين - وأبو بكر يصلي بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. فقال أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم، فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخصي الستر^(٣).

(٣) نفس المصدر، باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠.

(١) صحيح البخاري ١/٩٩.

(٢) صحيح البخاري ١/٩٨، ٩٩.

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى .
ولما ارتفع الضحى ، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت . ثم دعاها ، فسارها
بشيء فضحكت ، قالت عائشة ، فسألنا عن ذلك - أي فيما بعد - فقالت : سارني النبي
ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه ، فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه
فضحكت (١) .

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين (٢) .
ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاها ، فقالت : واكرب
أباه . فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم (٣) .
ودعا الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيراً ، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن .
وظفق الوجع يشتد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخير حتى كان يقول : يا
عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من
ذلك السم (٤) .
وأوصى الناس ، فقال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، كرر ذلك مراراً (٥) .

الاحتضار :

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله عليّ أن رسول
الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند
موته . دخل عبدالرحمن - بن أبي بكر - وبیده السواك ، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ،
فرأيتَه ينظر إليه ، وعرفت أنه يجب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ،
فتناولته ، فاشتد عليه ، وقلت : أئينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته . فأمره - وفي
رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستنأً - وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل
يديه في الماء فيمسح بها وجهه ، يقول : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات -
الحديث - (٦) .

(١) صحيح البخاري ٦٣٨/٢ .

(٢) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته بل في آخر أسبوع . رحمة

للعالمين ٢٨٢/١ .

(٣) صحيح البخاري ٦٤١/٢ .

(٤) نفس المصدر ٦٣٧/٢ .

(٥، ٤) .

(٦) صحيح البخاري . باب مرضي النبي ﷺ ٦٤٠/٢ .

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفاته، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وأخفني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى (١).

كرّر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

تفانم الأحران على الصحابة:

وتسرب النبا الفادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضواً من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ (٢). ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب رباً دعاه. يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه. يا أبتاه، إلى جبريل نعاها (٣).

موقف عمر:

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرج الخبير عن وعيه - يقول: إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات.

ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ: فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات (٤).

موقف أبي بكر:

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسبح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم

(١) نفس المصدر والباب، وباب آخر ما تكلم النبي ﷺ ٦٣٨/٢، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١.

(٢) رواه الدارمي. مشكاة المصابيح ٥٤٧/٢.

(٣) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٦٤١/٢.

(٤) ابن هشام ٦٥٥/٢.

الناس، حتى دخل على عائشة فتيّم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حبرة، فكشفه عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتَّهَا.

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. قال الله: ﴿وما محمد إلا رسول، قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزى الله الشاكرين﴾ [٣: ١٤٤] قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت حتى ما نقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات (١).

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض:

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخيراً اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ، حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه، مغشى بثوب حبرة، قد أغلق دونه الباب أهله.

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجرده من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس وعلياً، والفضل وقثم ابني العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خوي. فكان العباس والفضل وقثم يلقبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره.

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة (٢). أدرجوه فيها إدراجاً.

(١) صحيح البخاري ٢/٦٤٠، ٦٤١. (٢) متفق عليه، صحيح البخاري ١/١٦٩، صحيح مسلم ١/٣٠٦.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض، فرفع أبو طلحة فراشه الذي تُوِّفِي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر حداً.

ودخل الناس الحجرة أرسالاً عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، حتى دخلت ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء^(١).

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٤٧١، وانظر لتفصيل لحوقة بالرفيق الأعلى: صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح الباري وصحيح مسلم ومشكاة المصابيح باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٦٤٩/٢ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٨، ٣٩ ورحمة لتعلمين ٢٧٧/١ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المصدر الأخير.

البيت النبوي

١ - كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه، وهي في الأربعين، وهي أول من تزوجها من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعيش منهم أحد، وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى، وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان ممتازاً عن أمته بجل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة، منهن تسع مات عنهن، واثنان توفيتا في حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة، واثنان لم يدخل بها. وها هي أسماؤهن وشيء عنهن.

٢ - سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو، فمات عنها.

٣ - عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بستين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكرأ ولم يتزوج بكرأ غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق.

٤ - حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأميت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣ هـ.

٥ - زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبدالله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ. ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر.

٦ - أم سلمة هند بنت أبي أمية، كانت تحت أبي سلمة، فمات عنها في جمادى الأخرى سنة ٤ هـ، فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة.

٧ - زينب بنت جحش بن رباب من بني أسد بن خزيمه، وهي بنت عمه رسول الله ﷺ، وكانت تحت زيد بن حارثة - الذي كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ - فطلقها زيد، فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية النبي - وسأقي على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

٨ - جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها في شعبان سنة ٦ هـ.

٩ - أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، هاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر، وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧ هـ. خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة.

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب من بني إسرائيل، كانت من سبي خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧ هـ.

١١ - ميمونة بنت الحارث، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧ هـ، في عمرة القضاء، بعد أن حل منها على الصحيح.

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان - خديجة وزينب أم المساكين - في حياته، وتوفي هو عن التسع البواقي.

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما، فواحدة من بني كلاب، وأخرى من كندة، وهي المعروفة بالجونية، وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها.

وأما السراري فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداها مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ، في ٢٨ / أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م. والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل: بل هي

من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجحه ابن القيم. وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش (١). ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيداً أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاماً من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرأ على زوجة واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بفته في نفسه قوة عارمة من الشبق، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذي يحققه عامة الزواج.

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان - يشير إلى أنه ينبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به، وشاء الله أن يجتازها بسلام.

وكان من تقاليد العرب الإحترام للمصاهرة، فقد كان الصهر عندهم باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعاراً على أنفسهم، فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداة القبائل للإسلام، ويطفئ حدة بغضائها، كانت أم سلمة من بني مخزوم - حي أبي جهل وخالد بن الوليد - فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعاً راجباً، وكذلك لا نرى من قبيلتي بني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس.

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبي ﷺ كان مأموراً بتزكية وثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئاً من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدينة، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه.

والمبادئ التي كانت أسساً لبناء المجتمع الإسلامي، لم تكن تسمح للرجال أن

(١) انظر زاد المعاد: ٢٩/١.

يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفي لهذا الغرض ، فيزكهن ويربيهن ، ويعلمهن الشرائع والأحكام ، ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن لتربية البدويات والحضرية ، العجائز منهن والشابات ، فيكفين مؤنة التبليغ في النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله - ﷺ - المنزلية للناس ، خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة ، فإنها روت كثيراً من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متأصل ، وهي قاعدة التنبئ . وكان للمتنبئ عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء . وكانت قد تأصلت تلك القاعدة في القلوب ، بحيث لم يكن محوها سهلاً ، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التي قررها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيراً من المفسد والفواحش التي جاء الإسلام ليمحوها عن المجتمع .

ولهذه تلك القاعدة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق ، حتى هم زيد بطلاقها ، وذلك في ساعة تألب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود ، وما يثرونه من الوسوس والخرافات ضده ، وما يكون له من الأثر السيء في نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب أن لا يطلق زيد ؛ حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذا الإمتحان .

ولا شك أن هذا التردد والإنحياز كان لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ ، فعاتبه الله على ذلك وقال : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ [٣٧ : ٣٣] .

وأخيراً طلقها زيد ، وتزوجها رسول الله ﷺ في أيام فرض الحصار على بني قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ، ولم يترك له خياراً ولا

نحالا، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول: ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلاً يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ [٣٣ : ٣٧] وذلك ليهدم قاعدة التبني فعلاً كما هدمها قولاً: ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [٣٣ : ٥] . ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ [٣٣ : ٤٠] .

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول، بل لا بد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية، كان هناك أولئك المسلمون الذين رآهم عروة بن مسعود الثقفي، لا يقع من النبي ﷺ نخامة إلا في يد أحدهم، ورآهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة، والذين كان فيهم مثل أبو بكر وعمر، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته - بعد عقد الصلح - أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقيم لامثال أمره أحد، حتى أخذه القلق والإضطراب، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر، ولا يكلم أحداً ففعل، تبادر الصحابة إلى إتباعه في فعله، فتسابقوا إلى نحر جزورهم. وبهذا الحادث يتضح جلياً ما هو الفرق بين أثري القول والفعل لهدم قاعدة راسخة.

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ، ولم يكن يعرف المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نساء، وأن زيدا كان يعتبر أبناً للنبي ﷺ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى، وعلم الصحابة أن التبني ليس له أثر عند الإسلام، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره لأغراضه النبيلة الممتازة.

هذا، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبيل والسمو والحسن، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد. قال أنس: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميماً بعينه قط^(١). وقالت عائشة: إن كنا ننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله

(١) صحيح البخاري ٩٥٦/٢.

ﷺ نار . فقال لها عروة : ما كان يعشيكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء ^(١) . والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشطف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة - حسب مقتضى البشرية ، وليكون سبباً لتشريع الأحكام - فأنزل الله آية التخير ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جيلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ [٣٣ : ٢٨ ، ٢٩] وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وبذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر مع كثرتهم إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى ، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى تمام الآية الخامسة . وأخيراً أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات ، فمن نظر في حياة سكان أوروبا الذين يصدر منهم التكبر الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى ما يقاسون من الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البلايا والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .

(١) نفس المصدر والصفحة .